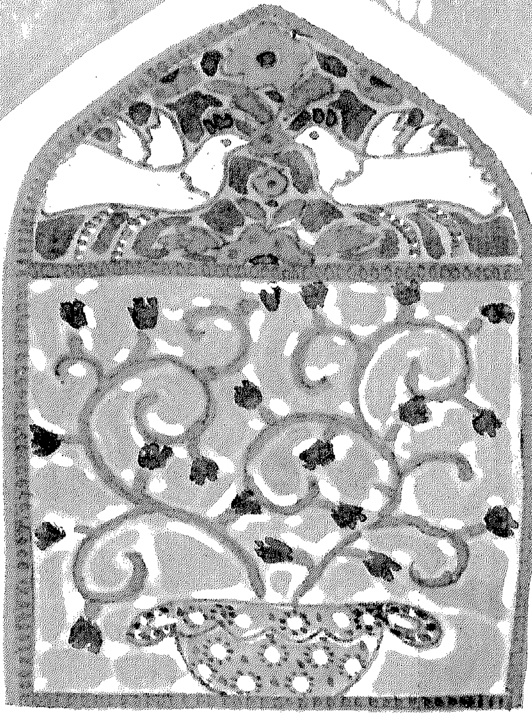
فاروق شوشة



لى عشرين قصيدة
الحب الإلهى

دار الشروق

أحلى عشرين قصيدة
في الحب الإلهي

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

فاروق شوشة

أحلى عشرين قصيدة
في الحب الإلهي

دار الشروق

« لقد صار قلبى قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان
وبيتُ لأوثانٍ ، وكعبةُ طائفٍ
وألواحُ توراةٍ ، ومصحفُ قرآنِ
أدين بدين الحبِّ أنَّى توجّهت
ركائبه ، فالحبّ دينى وإيمانى »

ابن عربى

هـذا الكـــتاب

هذه هي الحلقة الثانية فى سلسلـة المختارات التى تهدف إلى تقديم عيون الشعر العربى ـ قديمه وحديثه ـ من خلال التفافها حول إطار معين ينتظم هـذه المختارات، أو تجربـة شعريـة كبرى، مع التـوقف بالتحليل والتأمل عند أبرز من تناولوها فى رحلة القصيدة العربية عبر العصور.

وإذا كانت الحلقة الأولى فى هذه السلسلـة توقفت عند تجربة الحب فى الشعر العربى، وحملت عنـوان « أحلى عشرين قصيدة حب » فى هذا الشعر، فإن هذه الحلقـة الثانية تتقدم إلى ساحة أسمـى من ساحات هذا الحب هى سـاحة الحب الإلهى، حيث فاضت وجـدانات العشاق الكبار مـن الشعراء بأنغام وتـرانيم وألحان تطهروا بها، وحلقـوا من خلالها، دُنـوًّا واستشرافًا مـن الأفق الأعلى والأسمـى، حيث ينـابيع الـروحانيـة، والفيض الغـامر، وحيـث تمتلئ النفوس بـأقباس مـن النورانيـة وتفيض العيون بـدموع النـدم والخشية والتوبـة، وتعمر القلوب بوشائج المحبة الدائمة، ومقـامات العشق وأحواله، وينسكب هـذا كله فى النهـاية شعـرًا يفيض بـالصدق ويعمـر باليقين والمحبـة والإيمان.

لكن الأمر فى هذه المختارات المتصلة بالحب الإلهى لم يكن بالهين أو اليسير .

فعلى الرغم من امتلاء صفحات كثيرة من تراثنا العربى بنماذج هذا الحب ، إلا أن اختلاطها واضطرابها وتداخلها ، وتفاوت مستوياتها بين أصالة وتقليد ، وشاعرية وصنعة ، وصدق وتكلف ، يجعل مهمة الاختيار والتصنيف شاقة وعسيرة ، فضلاً عن عدم ملاءمة الكثير منها ، وهى أمور اقتضت بذل المزيد من الجهد ، واستغراق الكثير من الوقت .

ولسنا نزعم أن هذه القصائد العشرين هى أفضل ما فى تراث الحب الإلهى ـ قديمه وحديثه ـ من نماذج ، ولا أن أصحابها من الشعراء هم وحدهم أفضل الشعراء وأحقهم بأن نتوقف عندهم ، فكما قلت فى تقديمى « لأحلى عشرين قصيدة حب فى الشعر العربى » : إن الأساس الأول فى الاختيار هو ذوق شخصى ، وقد يخطئ هذا الذوق وقد يصيب ، لكن ارتباطى الوجدانى ببعض هذه القصائد من خلال مواقف وتجارب معينة ، وعلى مدار العمر ، جعلها أقرب إلى نفسى وأسبق إلى الاختيار من سواها .

كذلك فإن حرصى على تغطية مساحة طويلة من الزمان تنتظم شعر الحب الإلهى ـ من بدئه كظاهرة فنية ملموسة حتى يومنا هذا جعلنى ـ كما قلت من قبل ـ لا أطيل التوقف عند ممثلى كل عصر من بين أعلامه وأصواته الكبرى بقدر إسراعى إلى انتزاع القصيدة النموذج فى دلالتها وموضعها من السياق .

ولاشك أن وضع هذه المختارات فى سلك منظوم يحمل انتظامه معنى ، ويعطى تتابعه واطراده دلالة ، ويؤدى بسياق اكتماله إلى فكرة واضحة هى الكشف عن تجربة التعبير عن الحب الإلهى فى شعرنا العربى ، وحقيقة موقف الشعراء العشاق من هذه التجربة والمدارات التى حلقوا فيها وسموا إليها ، وألوان الصور الشعرية التى أبدعوها والأنغام الموسيقية التى عزفوها والأبنية الفنية التى أقاموها ـ لاشك أن هذا الهدف يستحق عناء البحث والتنقيب والتحقيق والاختيار .

ولقد ظلت هذه النماذج وغيرها من تراث الحب الإلهى مختلطة مع غيرها من قصائد المدائح النبوية والابتهالات والأدعية والمنظومات والأذكار الدينية ، ولعل هذه هى المحاولة الأولى لاستخلاصها ، وتجريد بعضها مما لحق به من تحريفات أو علق به من تجاوزات ، حتى تكون هناك مختارات قادمة ، تركز على شعر المدائح النبوية باعتبارها فنًا مستقلاً ، له خصائصه وسماته وله أعلامه من الشعراء قدامى ومعاصرين ، وله مساحته الواسعة من الدوران فى ديوان الشعر العربى منذ أقدم العصور حتى اليوم .

والأمل معقود أن تلقى هذه المختارات من شعر الحب الإلهى ما لقيته سابقتها لدى القراء من ذيوع وانتشار ، بعد أن أدى الإقبال عليها إلى صدور الطبعة السادسة منها فى سنوات معدودة ، وأن يستجيب شعراؤنا ودارسونا للدعوة التى حملتها المختارات السابقة : أن يسهموا ويشاركوا فى هذا الميدان ، كل على حسب طاقته واستطاعته واهتماماته ، فتتعدد مجالات الاختيار ، من خلال أذواق عدة ، من شأنه

أن يـؤدى فى النهايـة إلى تكـوّن الـذوق الصـحيح المدرب الـذى يجيـد الانتقاء والرؤية النافذة ، وينجح فى تقديم قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله التراث من كنوز ، بعد أن ينفـض عنها غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها ماء الجدّة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات فى تقريب المسافة بين القارئ المعاصر وتراث أمته الشعرى ـ قديمه وحديثـه ـ وفتحت بابًا ولويسيرًا لتذوق عصرى ، ترفـده حساسيـة جديدة ، ووعـى جديـد ، فإنها تكـون قد شارفت الغاية ، وأشارت إلى الطريق .

الرحلة فى بحار العشق

هى رحلة حب من طراز نادر وفريد .

نتقدم من خلالها إلى ساحة عامرة وضيئة ، تغتنى بالعديد من الأنغام والألحان التى أبدعها هؤلاء الشعراء الذين تغنوا بالحب الإلهى ــ عشقًا وهيامًا وفناءً وذوبانًا ـ بعد أن سموا بإدراكهم وتذوقهم للجمال والحب إلى ما فوق رغبات الحس ودواعى المتعة ونفذوا إلى أبعد آماد معانيه وصوره وتهويماته ، واستطاع هؤلاء الشعراء ـ الذين امتلأت قلوبهم ووجداناتهم بأقباس الحب الإلهى ـ أن يبدعوا عالمًا شعريًا له مفرداته ورموزه وإيحاءاته ، وله معجمه الخاص الذى لابد من الإحاطة به لمن يحاول الاقتراب من حدود عالمهم الشعرى ، خشية أن يزل أو يضل ، فالجمال بالنسبة إليهم وسيلة لسمو الروح واهتدائها إلى المعانى الخيرة المطلقة والمبادئ السامية . كما أن آيات الابداع التى تتجلى فى المخلوقات هى سبيل لتحقيق النشوة الروحية التى يعرج بها كل امرئ نقى السريرة إلى الله .

فالجمال الإلهى يتجلى فى الطبيعة من خلال الموجودات والكواكب

والنجـوم ، كما يتجلى فى النـاس . والكـون كلـه يشـترك فى عبـادة ذى الجمال المطلق المنزه عن التشبيه ، ويهيم بهذا الجمال فى نشوة مقدسة، وهذا الحب الإلهى يغمـر الكون ، ولـولاه ما انتظـم الكون . ومـن هنا يمكن أن نفهم تجليات هذا الحب وأسراره وإيماءاتـه وومضاته ونحن نتـابع رحلـة هـؤلاء الشعـراء فى هيامهـم بـالجمال الإلهى تتردد على شفاههم أسماء محبوباتهم من البشر ، وهى فى حقيقتها رموز الجمال الأسمى ، فليلى وسعاد ونُعْم ـ وغيرها مـن الأسماء فى أشعارهم ـ هى الحبيب الأعظم ، وهى سبيلهم إلى الهداية الروحية ، يتجاوزون الجمال الجسمى المحدد إلى الانتشاء بالفيض الإلهى ، لجمالٍ يجل عن الوصف ويتقدس عن الكيف .

وقد عبر محيـى الدين بـن عربى ـ أحـد هؤلاء العشاق الكبـار من الصوفيـة ـ فى مقدمـة ديوانـه : ترجمان الأشواق ، عـن حقيقة إدراك هـؤلاء الشعـراء للجمال الإلهى ، منبهـًا إلى أن أشعارهـم لها ظـاهـر وباطـن، فظاهرهـا غزل يمكـن أن ينطبق على الغزل الحسـّى ، ولكن باطنهـا الهداية إلى أسرار الهيام بالمعـارف الإلهية والواردات البـاطنة والأسرار الجمالية العليا .(١)

يقول ابن عربى :

« لما نزلت بمكة سنة خمسمائة وثمانى وتسعين ، ألفيت جماعة من الفضـلاء ، ولم أر فيهـم مـع فضلهـم مثل أبـى شجـاع بـن رستـم

---

(١) ليلى والمجنون أو الحب الصوفى ترجمة وتقديم الدكتور محمد غنيمى هلال .

الأصفهاني ، وكان لهذا الشيخ بنت تقيد النظر وتزين المحاضر، علمها عملها ، عليها مسحة مَلَك وهمة مِلك ، فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد ، فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكني ، ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحية والمناسبات العلوية ، جريًا على طريقتنا المثلى ، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية والهمم العلية المتعلقة بالأمور السماوية » .

فإذا حاولنا أن نتأمل حقيقة هذا الحب الإلهي ومعناه ، ذلك الذي هام فيه الصوفية ، وفنوا وتفانوا ، معبرين عن خوالجهم وعن شطحاتهم ، في نثرهم وشعرهم ، وأدعيتهم وابتهالاتهم ، وشروحهم وتعليقاتهم ومنظوماتهم ، وجدناه وقد تمثل في صورته الأولى من خلال التعبير القرآني المحكم ومأثور كلم الرسول الكريم .

جاء هذا المعنى في القرآن الكريم « يحبهم ويحبونه » في قوله تعالى : ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ . [سورة المائدة : الآية ٥٤]

وفي قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ٣١]

وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبًا لله ﴾ .

[سورة البقرة : الآية ١٦٥]

ويروى عن الرسول الكريم : اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك والعمل الذى يبلغنى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إلىّ من نفسى وأهلى ومن الماء البارد .

ومن مأثور قول الرسول الكريم :

« من أحب الله فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ومن أحب أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أبنية أذن الله تعالى برفعها وتطهيرها وبارك فيها ، فهى ميمونة ميمون أهلها، فهم فى صلاتهم والله تعالى فى حوائجهم ، وهم فى مساجدهم والله تعالى فى نجح مقاصدهم » .

وفى القرن الثانى الهجرى تتأكد فكرة حب الله من خلال شخصية التفت حولها القلوب والعقول ، هى شخصية رابعة العدوية التى ظهرت فى البصرة داعية بدعوة جديدة هى دعوة التقرب إلى الله عن طريق حبه ، وهى تنادى بهذا الحب لأنها ترى أن الله أهل لأن يحب أولاً لأنه مصدر النعم التى لا تنقطع ، فلا سبيل لأن ينقضى حب المنعم بها على العباد ، وهو أهل لأن يحب ثانيًا لجماله وجلاله .

تقول رابعة :

أحبك حبين : حب الهوى
وحبًا لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبّ الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأمـا الـذى أنـت أهـل لـه
فكشـفك لى الحجب حتى أراكا
فـلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى
ولكـن لك الحمـد فى ذا وذاكـا

وفى موضع آخر من شعرها تقول :

ياسرورى ومنيـتى وعـمادى
وأنيـسى وعـُدّتى ومـرادى
أنت روح الفؤاد ، أنت رجـائى
أنت لى مؤنسى وشـوقك زادى
أنـت لولاك يا حـياتى وأنسى
مـا تشتتُّ فى فسـيح البـلادِ
كـم بـدت مـنة وكم لك عندى
من عطـاءٍ ونعمـة وأيـادى
حبـك الآن بُغْيـتى ونعيـمى
وجـلاء لعيـن قلـبى الصادى
ليـس لى عـنك ما حييـت بَراحٌ
أنـت مـنى ممكّـن فى الفـؤادِ

ويبدو أن نفـاذ شخصية رابعـة فى القلوب ، ودوران شعـرها على

الألسنة والأسماع ، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعةً واستلهاما ، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:

لما علمت بأن قلبى فارغ
ممن سواك ، ملأته بهواكا
وملأت كلى منك ، حتى لم أدع
منى مكانا خاليًا لسواكا
فالقلب فيه هيامه وغرامه
والنطق لا ينفكُّ عن ذكراكا
والطرف حيث أُجيله متلفتا
فى كلّ شىء يجتلى معناكا
والسمع لا يصغى إلى متكلم
إلا إذا ما حَدّثوا بحلاكا

بل إنه ينظر من قريب أيضًا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة :

لك قرب منى ، ببعدك عنى
وحنوٌّ وجدته فى جفاكا
علّم الشوق مقلتى سهر الليل
فصارت من غير نوم تراكا
حبذا ليلة بها صدتُ إسراك
وكان السهاد لى أشراكا
بات بدر التمام طيف محيّاك
لطرفى بيقظتى إذ حكاكا

فتراءيت فى سواك لعين
بك قَرَّتْ وما رأيت سواكا

وهى أبيات تدور حول فكرة استحضار صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق فى الإتيان بالصور المبتكرة والمعانى الطريفة ، وهو مجال كان لابن الفارض فضل السبق فيه ، من خلال قدرته الفذة على اصطياد عشرات الصور التى يتمثل فيها جمال صورة المحبوب ، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها ، أليس هو القائل :

تراه إن غاب عنى كل جارحة
فى كلّ معنى لطيفٍ رائقٍ بهيج
فى نغمة العود والناى الرخيم ، إذا
تألَّفا بين ألحانٍ من الهزج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى
برد الأصائل والإصباحِ فى البَلَجِ
وفى مساقط أنداء الغمام على
بساط نَوْرٍ من الأزهار مُنتسج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا
أهدى إلىَّ سُحَيرًا أطيب الأرج
وفى التثامىَ ثغر الكأس مرتشفًا
ريق المدامة فى مستنزهٍ فرج
لم أَدْرِما غربةُ الأوطانِ وهو معى
وخاطرى أين كنّا غير منزعجِ

ويبـدو أن هذا اللـون مـن الحب لم يكن مـن السـهـل ولوج عـالمه والارتفاع إلى مستوى معـاينته وتمثله ، إلا بعد ابتـلاء طويل وتجارب قاسيـة يتعرض فيها المتصوف فى البـداية إلى معاناة الحب الإنسـانى حتى تحتدم به عاطفته ، فيكون التحول إلى حبٍ أسمى هو حب الله .

قال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشـىء من المحبة .

فقال : يا بنى : هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟

فقال : لا ، فقـال : فلا تطمـع فى المحبة فإنـه لا يعطيها عبـدًا حتى يبلوه. وشبيه بهذا ما قيـل لبعض الصـوفية وكان قد بـذل المجهود من ماله ونفســه حتى لم يبق منها بقية : مـا كان حالك مـن هذه المحبة ؟ فقال : كلمة سمعتهـا من خلق لخلق عملـت بى هذا البلاء . قيـل : وما هى؟ قال : سمعت محبوبًا قد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك، أملكك مـا أملك ، ثم أنفـق عليك روحى حتـى تهلك ، فقلت : هـذا خلق لخلق وعبد لعبد ، فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود ، فكان لذلك سببه[1]

ثم يجىء ذو النون المصرى ـــ فى القرن الثالث الهجـرى ـ ليضيف إلى هذا البعد مـن أبعاد الحب الإلهى عند المتصـوفة ملمـح الأنس ، الأنس بالله، أى العمل له خالصًـا ، مع فرح القلب بالمحبوب « أى الله » ولو كان ذلك عـن طريـق النظر إلى بعـض خلقه اتعـاظًا واعتبـارًا دون السكن إليهم.

يقول ذو النون حين سئـل عن الأنس : أن تأنس بكـل وجه صبيح

---

(١) « أبو طالب المكى » : قوت القلوب جـ ٢ .

وكل صوت فصيح ، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك .

ثم نطالع عند إخوان الصفاء ـ فى القرن الرابع الهجرى ـ إدراكًا أعمق وأشمل لفكرة الحب الإلهى باعتباره الحب الحق والعشق الخالد الذى تسمو إليه النفس الناطقة عند بلوغها أقصى ما تسمو إليه من الكمال فالله هو المعشوق الأول المنزه عن الشبيه [١] ولا يستلزم حب الله والهيام به تجسيمًا فى رأيهم ، لأن الله يجل عن الشبيه والصورة ، لكن رؤية أولياء الله تعالى له هى رؤية نور بنور لنور فى نور ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ﴾ .

[سورة النور : الآية ٣٥]

وهكذا يمضى إخوان الصفاء فى هذا الطريق ، طريق اتخاذ الحب طريقًا إلى الله ، والهيام به لجماله وجلاله ، وإدراك أن هذا الجمال كان الباعث على خلق الكون [٢] ، والفلك إنما يدور شوقًا إليه ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات وأكمل الغايات وأفضل النهايات .

وهكذا تكتمل صورة هذا الحب الإلهى ، من خلال أبرز أعلامه ، واتجاهاتهم وأفكارهم ، فهو ليس تعلقًا بالأجساد وصور المادة ، بل

---

(١) رسائل إخوان الصفاء جـ ٢ .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ابن قيم الجوزية .

هو حب للمعانى العقلية والكاملــة وتعلق بالمثل وهيام بمصدر الكمال والجمال ، ومن هنا فالحب عند الصوفية طريق إلى الزهد فى متع الدنيا جميعًا وحرب على النفس وسبيل إلى العزوف عن مغرياتها .

والصــوفية يحفلــون بجمال الروح قبــل جمال الجسم ، ولا فــرق عندهم بين حب من صفت روحه من حسان الخلق وحب شيخ الطريقة الكهل الأشيب لأنــه جميل الروح (١) . وشرط الوصــول إلى الحق عن طريق الحب أن يكــون المحب جميل الروح ،وأن يهتــم بمخلوق جميل الروح ولو لم يكن جميل الجسم ، إن جمال الروح هو الذى يفتح أمام المحب الطريق للتأمل والفكر اللذين هما السبيل للوصول إلى الغاية من الحب عند الصوفية . فجمال الخلق يمكن أن يتخذ سبيلاً لمعرفة الحق، والحب هو الطريق لمعرفة الحقيقة . يقول عبد الرحمن الجامى الشاعر الفارسى المتصوف ـ فى قصة يوســف وزليخا (ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال) :

« القلب الخالى من ألم العشق ليــس بقلب ، والجسم الخالى من ألم العشق ليس إلا مــاءً وطينًا ، فأشح بــوجهك عن العــالم ولا تفكر إلا فى العشق ، فدوران الفلك إنما هــو من أجــل العشق فكــن أسير العشق لتصير حرًا ، وقاسِ من أحزانــه فى صدرك لتحظى بالسرور ، ولا تشح بوجهك عن العشــق ولو كان العشق المجازى لأنه الطــريق إلى العشق الحقيقى ، وكيــف تتيسر لك قراءة القــرآن إذا لم تكن قد طــالعت أولاً

---

(١) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية للدكتور محمد غنيمى هلال .

الحروف الأبجدية فى اللوح ؟ سمعت أن مر يـدًا طلب من شيخه العون فى إرشاده فقال له الشيخ : إذا لم تكن قد نقلت الخطو فى طريق العشق فاذهب وأحبّ ثم عد إلينا ، إذا بـدون كأس خمرة الصورة لن يستطيع امرؤ تذوق جـرع المعنى ، ولكن لا تمكـث طويلاً أمـام الصورة واعبر سريعـًا ذلــك الجسر إذا أردت أن تسرع بـوضـــع رحلـك فى منـــزل الوصول».

ويروى الجامى فى قصته « يوسف وزليخا » حكاية الفتاة المصرية الجميلة المسماة « بازعـة » وقد أحبت « يـوسف » من قبـل أن تراه لما سمعته من وصفه ، فلما رأته وقعت مغشيـًا عليها لما بهرها من جماله ثم أفاقت فأخذت تسأله : « يـا من بك يستقيم أمر كل ذى حسن ، من ذا الذى زينك بمفاتن الجمال ؟ من ذا الذى جعل شمس جبينك تتألق؟ وأى مصورٍ أبـدع قلمه فى نفسك ؟ وأى بستـانى تعهـد شجرة سروك وأى فرجار رسـم قوس حواجبك ؟ ومن ذا الذى جعـد هكذا ذوائبك ؟ ومن أين لوردتك النضرة ذلك الماء الذى به رويت ؟ » .

فأجابها يـوسف : « أنا صنعة صـانعى ، وقطرة من بحـره كافية لخلقى ، وما الفلك إلا نقطة من كماله ، وما العالم إلا برعمة من حديقة جماله ، وقد أشرقت الشمس بنور حكمته ، وما السموات إلا حباب من بحر قدرته ، وجماله منزه عـن تهمة العيب ، مستتر فى حجاب الغيب ، وقد جعل مـن ذرات العالم مرايا انعكـس وجهه فى كل منها ، فكـل ما يبدو جميلاً فى عيون المفكّر النافـذ البصيرة ليس إلا انعكاسًا لوجهه ، فحين ترين هذا الانعكاس عجّلى بـالاتجاه صوب الأصل الذى لا يبقى

بالاضافة إليه إشراق لذلك الانعكاس ، وإذا بقيت بعيدة عن أصل ذلك الجمال ـ وحاشا أن تبقىْ ـ فلا يلبث أن يفنى الجمال الذى تعلقت به فتظلين فى الظلمات ، فالجمال فى الخلق انعكاس عابر لا يطول بقاؤه كنضارة الورد فإذا أردت الخلود فتوجّهى إلى أصل الأشياء كلها » .

وعندما علمت الفتاة الحكيمة بهذه الأسرار من فم يوسف ، طوت بساط حبّها له ، وقالت له : « قد كدت أسقط إعياءً عندما رأيت وجهك ، وكنت أود أسلم الروح فوق قدميك ، ولكن حين ثقبت جوهر الأسرار وتحدثت عن سمات منبع الأنوار ، جعلتنى بلطف قولك الحق أدير وجهى عن حبّك ، قد رفعت الحجاب عن وجه المثال الذى إليه تطلعت ، والآن وقد تفتح قلبى لهذا السر ، وتطلعت أنظارى إلى العشق الحقيقى عن طريق عشقك المجازى ، فخير لى أن أنصرف عن المجاز إلى الحقيقة». ثم شكرت يوسف وانصرفت ، وأسست لها مقامًا للعبادة على ساحل النيل حيث ترهبت وزهدت فى خير الدنيا .

ويعرف بعض هؤلاء العشاق من المتصوفة المحبة بأنها الميل الدائم بالقلب الهائم ، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة الحبيب فى المشهد والمغيب ومحو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته ، ومواطأة القلب لمرادات الرب ، وترك الحرمة مع إقامة الخدمة .

يقول أبو يزيد البسطامى : المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك .

ويقول سهل بن عبد الله التسترىّ :

إن العباد عبدوا الله على ثلاثة وجوه : على الخوف والرجاء والقرب

ولكـلٍ علامــة يعرف بها وشـهـادة تشـهد لــه بما له وعليــه . فعلامــة الخائف الاشتغال بالتخلص مما يخاف فلا يزال خائفًا حتى يتخلص ، فإذا تخلّص مما يخاف ، اطمأن وسكـن ، فهذه علامة الخائفين . وأما الراجـى فإنه رجـا الجنة وطلب نعيمها وملكهـا فأعطى القليـل وطلب الكثير، فبذل نفســه وخاف أن يسبقه أحـد فجد فى البـذل وتحرز من الدنيا ألا يقف غدا فى الحساب فيسبق .

وأما العارف الذى طلب معرفة الله وقربه ، فإنه بذل ماله فأخرجه ، ثم روحه فأباحه ، فلو لم تكن جنة ولا نار لما زال ولا فتر ، فهذه علامة العارف .

فانظروا أيها العقلاء : من أى القوم أنتم ؟ أموتى لا حياة فيكم ، أم لا موتى ولا أحياء ؟ أم أحياء حيوا حياة الخلد ؟

ويحك : إن الخائف حيٌّ بحياة واحدة ، وللراجى حياتان ، وللعارف ثلاث حيوات ، وهى الحياة التى لا موت فيها .

فحياة الخائف إذا أمن النـار فقد حيى بحياة ثم يتم بحيـاة ثانية ، ويدخل الجنــة بغير حساب ، والراجى أمن من العـذاب ومن الحساب فمر إلى الجنــة مع الســابقين بغير حساب ، فصــار له أمــانان ، وأمــا العارف فصار له أمانان من النار ، والأمان الثالث صار إلى الرحمن .

ويقول سـهل أيضًـا :

الحب معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة .

وسئل الجنيد عـن المحبة فقال : دخول صفـات المحبوب على البدل من صفات المحب .

ويقول أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلّك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء .

ويقول الشبلي : سُمّيت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

ويقول ابن عطاء : المحبة إقامة العتاب على الدوام .

ويقول أبو على الدقاق : المحبة لذة ومواضع الحقيقة دهش .

ويقول أيضًا : العشق مجاوزة الحدّ فى المحبة .

ويقول الشبلى : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك .

ويقول ابن عطاء : المحبة أغصان تغرس فى القلب فتثمر على قدر العقول .

ويقول سحنون : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : يحشر المرء مع من أحب .

ويقول النصر اباذى : المحبة مجانبة السلو على كل حال .

وأنشد قائلاً :

ومن كان فى طول الهوى ذاق لذةً
فإنى من ليلى لها غير ذائقِ
وأكثر شيءٍ نلته من وصالها
أمانىّ لم تصدق كلمحة بارق

وأنشد ابن عطاء :

غرست لأهل الحب غصنًا من الهوى
ولم يك يدرى ما الهوى أحدٌ قبلى

فأورق أغصانًا وأتبع صبوةً
وأعقب لى مرًّا من الثمر المحلى
وكلّ جميع العاشقين هواهم
إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

وفسر أبو على الدقاق قول الرسول الكريم : « حبك الشىء يعمى ويصم» قال : يعمى عن الغير غيرةً وعن المحبوب هيبة .

ثم أنشد :

إذا ما بدا لى تعاظمته
فأصدر فى حال من لم يرد

ويقول الحارث المحاسبى : المحبة ميلك إلى الشىء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرًا وجهرًا ، ثم علمك بتقصيرك فى محبته .

ويقول الشبلى : المحب إذا سكت هلك ، والعارف إن لم يسكت هلك .

ويفسر بعض العارفين (١) هذا الكلام بقوله :

إن المحب الواله لابدّ له من الشكوى ، ويهيج من المحبة حتى ليكاد أن يحترق لو لم يبد ما عنده ، ولا يستطيع الصبر على غيبة محبوبه ، لذلك قال الله فى حق أم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عند إلقائه فى اليم وغيبته عنها (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) ولو كان بين يديها لكتمته حرصًا عليه ، وكذلك العارف إذا وصل إلى

(١) السمو الروحى فى الأدب الصوفى لأحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .

المعرفة بمحبوبه كتم سره حرصًا على البقاء فى حضرته وأدبًا من هيبته وخشوعًا فى حضرته ، ولأنه بات فى حضرة الغنى المطلق مترقيًّا فى الأسرار العلية فلا ينظر ما سواه ، وقد أغناه عن طلب غيره والتذَّ بسريان السر فيه ، فهو فى مسارح الروح تائه فى بيداء الجلال ، يتكلم المتكلمون حوله وقلبه قد لها عنهم ، وروحه فى تجلياتها العظمى فوق مدارك الفهوم فلا يفهمهم ولا يُفهمهم ما لا يطيقون حمله ولا يستطيعون فهمه ، ومن وجد فى الحضرة فقد عراه الصمت المطلق فى باطن أسراره ، ولو تكلم فى الظاهر بموجب الشريعة وحال بشرنيته ، ولكنه يلهب القلوب لمجرد رؤيته من أنوار الحق التى تتجلى على باطنه ، ولذلك يذيق العارف محبيه حلاوة الإيمان بدون احتياج إلى بيان .

وقيل : المحبة نار فى القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب .

ويقول السوسى : لا تصلح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناءٍ على المحبة .

ويروون أن السرىّ رفع إلى الجنيد رقعة وهو يقول له : هذه خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلو فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قال : كذبتنى
فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا
وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحلّ حتى ليس يبقى لك الهوى
سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

ومما يروى أيضًا ـ فى هذاالسياق ـ أن يحيى بن معاذ كتب إلى أبى يزيد

البسطامي قائلاً : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته .

فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد، ويقول هل من مزيد ؟

وأنشد :

عجبت لمن يقول : ذكرت إلفي
وهل أنس فأذكر ما نسيتُ
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظني ما حييتُ
شربنا الحب كأسًا بعد كأس
فما نفد الشراب وما رويتُ
فأحيا بالمنى وأموت شوقًا
فكم أحيا عليك وكم أموتُ

ويقول عبد الله بن المبارك :

من أعطى شيئا من المحبة ولم يُعط مثله من الخشية فهو مخدوع .

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم السكر الذى يحصل عند الشهود لا يوصف .

وأنشدوا :

لى سكرتان وللندمان واحدة
شيء خُصصتُ به من دونهم وحدى

ويقول يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلىّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وتذاكر قوم المحبة فى حضرة ذى النون المصرى فقال : كفّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخـــــوف أولى بـالمســــــى‍ء
إذا تــأ‍لّــــــه والحـــــــــزَنْ
والحـــب يجـمــــل بالتـــقىّ
وبـالنقـــىّ مـــن الـــــــدرن

ويروون أن قومًا جلسوا يتذاكرون المحبة فى الكعبة ، وكان الجنيد أصغرهم سنـًا فطلبوا إليه الكلام ، فـأطرق برأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبدٌ ذاهل عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هويته ، وصفا شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار عن أستار غيبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ومع الله ، فبكى القوم وقالوا : ما على هذا مزيد ، جَبَرك الله يا تاج العارفين .

والجنيد هوالقائل :

وتـحققـــــتك فى ســــــرى
فنـــاجــــاك لســــــانــى
فاجتمعـــــــنا لمعـــــان
وافـــــترقــــــنا لمعـــــان
إن يــكن غَـيَّبــكَ التعظـــيم
عــن لفـــظ عيــــــانى
فلقــــد صـــيرَّك الـوجـد مـن الأحشـــاء دانِ

وهو القائل أيضًا فى معنى المشاهدة :

حاضرٌ فى القلب يعمره
لست أنساه فأذكره
فهو مولاى ومعتمدى
ونصيبى منه أوفره

وقيل : أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود إنى حرمت على القلوب أن يدخلها حبى وحب غيرى .

ويروى عن أبى سعيد الخراز أنه قال : رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المنام ، فقلت له : يا رسول الله اعذرنى ، فإن محبة الله تعالى شغلتنى عن محبتك ، فقال : يا مبارك ، من أحب الله فقد أحبنى .

ونطالع فى هذه السطور لأبى الحسن الشاذلى ـ أحد أقطاب العارفين بالله والمتصلين بأسرار الحب الإلهى ـ اقترابًا من حدود هذا العالم الروحى السمح والأفق النورانى السامى ، وهو يتحدث عن الأنس الربانى وشوارق الأنوار ولوائح الأسرار ويقف عند الأحوال والمقامات ، يقول أبو الحسن :

« أول منزل يطؤه المحب للترقى منه إلى العلا : النفس ، فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إلى معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثانى وهو القلب ، فإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق منه عليه شىء ، أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح فإذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئًا فشيئًا

إلى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة ، وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوكة ، تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها » . ويقول : « من أمده الله تعالى بنور العقل الأصلي شهد موجودًا لا حد له ولا نهاية ، بالإضافة إلى هذا العبد ، واضمحلت جميع الكائنات فيه ، فتارة يشهدها فيه كما بنية فى الهواء بواسطة نور الشمس ، وتارة لا يشهد انحراف نور الشمس من الكوة ، فالشمس التى يبصر بها هى العقل الضرورى بعد المادة بنور اليقين ، وإذا اضمحل هذا النور ذهبت الكائنات كلها وبقى هذا الوجود ، فتارة يفنى وتارة يبقى ، حتى إذا أريد به الكمال نودى فيه نداء خفيًّا لا صوت له ، فيمد بالفهم عنه ، ألا إن الذى يشهد غير الله تعالى ليس من الله فى شيء ، فهناك يتنبه من سكراته فيقول : يارب ثبتنى وإلا فأنا هالك ، فيعلم يقينًا أن هذا الحب لا ينجيه منه إلا الله عز وجل فحينئذ يقال له : إن هذا الموجود هو العقل الذى قال فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أول ما خلق الله العقل ، فأعطى هذا العبد الذل ، والانقياد لنور هذا الموجود ، إذ لا يقدر على حدّه وغايته ، فإذا أمد الله هذا العبد بنور أسمائه قطع ذلك كلمح البصر ، أو كما شاء الله تعالى : نرفع درجات من نشاء ، ثم أمده الله تعالى بنور الروح الربانى فعرف هذا الموجود فرقى إلى ميدان الروح الربانى ، فذهب بجميع ما تحلّى به هذا العبد ، وما تخلى عنه بالضرورة، وبقى كلا موجود ، ثم أحياه الله بنور صفاته فأدرجه بهذه الحياة فى معرفة هذا الموجود الربانى فلما استنشق من مبادئ صفاته كاد يقول : هو الله . فإذا لحقته العناية الأزلية نادته : ألا إنّ هذا الموجود

هو الذى لا يحق لأحد أن يصفه ، ولا يعبر عنه شىء من سر صفاته لغير أهله ، لكن بنور غيره يعرفه فإذا أمدّه الله بنور سر الروح وجد نفسه جالسًا على باب ميدان السرّ ، فرفع همته يعرف هذا الموجود الذى هو السرّ ، فعمى عن إدراكه فتلاشت جميع أوصافه كأنه ليس بشىء ، فإذا أمده الله تعالى بنور ذاته أحياه حياة باقية لا عاقبة ولا غاية لها ، فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة ، ووجد نور الحق شائعًا فى كل شىء لا يشهد غيره ، فنودى من قريب : لا تغتر بالله ، فإن المحجوب من حجب عن الله بالله ، إذ محال أن يحجبه غيره ، وهناك يحيا حياة استودعها الله تعالى فيه ، ثم قال : أعوذ بك منك حتى لا أرى غيرك ، وهذا هو سبيل الترقى إلى حضرة العلى الأعلى ، وهو طريق المحبين الذين هم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما يعطيه الله تعالى لأحدهم من بعد هذا المنزل لا يقدر أحد أن يصف منه ذرة ، والحمد لله على نعمائه .

وأما طريق المحبوبين الخاصة بهم ، فإنه ترقٍ منه إليه به ، إذ محال أن يتوصل إليه بغيره ، فأول قدم لهم بلا قدم ، إذ ألقى عليهم نور ذاته ، فغيبهم بين عباده وحبب إليهم الخلوات وصغرت لديهم الأعمال الصالحات ، وعظم عندهم رب الأرض والسموات ، فبينما هم كذلك إذ ألبسهم ثوب العدم ، فنظروا فإذا هم لاهم ، ثم أردف عليهم ظلمة غيبتهم عن نظرهم ، فصار نظرهم عدمًا لا علة له ، فانطمست جميع العلل ، وزال كل حادث ، فلا حادث ولا وجود ، بل ليس إلا العدم الذى لا علّة له ، فلا معرفة تتعلق به ، اضمحلت المعلومات ،

وزالت الرسومات زوالا لا علة فيـه ، وبقى من أشير إليه ، لا وصف له ولا صفة ولا ذات ، واضمحلت النعوت والأسماء والصفات كذلك ، فلا اسم ولا صفة ولا ذات ، فهنالك ظهر مـا لم يزل ظهورًا لا علة فيه ، بل ظهر بسره لذاتـه فى ذاته ظهورًا لا أولية لـه ، بل نظر من ذاتـه لذاته فى ذاته ، وهناك يحيا العبد بظهور حياة لا علة لها ، وصار أولاً فى ظهوره لا ظاهـرًا قبله ، فـوجدت الأشياء بـأوصافـه وظهرت بنـوره فى نوره سبحانه وتعالى . ثم يغطس بعـد ذلك فى بحر بعد بحر إلى أن يصل إلى بحر السر فإذا دخل بحـر السر غرق غرقًا لا خروج له منـه أبد الآباد ، فإن شاء الله تعالى بعثه نائبًا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يحيى به عباده ، وإن شاء ستره يفعل فى ملكه ما يشاء » .

ويقـول أبو الحسـن الشاذلى : « لا يـوصف العبـد بأنـه قد هجـر المعاصى إلا إن كانت لم تخطر لـه على بال ، فإن حقيقة الهجر نسيان المهجور ، هذا فى حق الكاملين ، فإن لم يكـن كذلك فليهجر على المكابدة والمجاهدة » .

ويقول أيضـًا : لن يصل العبد إلى الله تعـالى وبقى معه شهـوة من شهواته ، ولا مشيئة من مشيئاته ، ولن يقتـل هو نفسه حتى يأخذها بالقوة وشدة المجاهدة إلى أن يذللها تذليلا ويروضـها على نسيان ذاتها، فيقف عند حد الذل إلى الله تعالى .

وفى ذلك يقول عمر بن الفارض :

وما ظفـرت بالـودّ روح مـُراحـةٌ
ولا بالـولا نفـسٌ ، صفـا العيـش ودَّتِ

وأيـن الصـفـا ؟ هيهـات بالعيش عاشقٌ
وجـنة عـدنٍ بالمـكاره حُـفّـتِ
ولى نفـس حـرٌّ لـو بـذلت لها علـى
تسـلّيك ما فـوق المـنى ما تسلّتِ
ولـو أبعـدت بالصـدّ والهجـر والقلى
وقطـع الرَّجـا من خلـّتى ما تخـلتِ
وعـن مـذهـبى فى الحـب ما لى مذهبٌ
وإن ملـت يـومًا عـنه فـارقـت ملـّتى
ولـو خطـرت لى فى سـواك إرادة
على خـاطـرى سهْـوًا قضيت برِدَّتى

ويقول بعـض العارفين مـن المحبين : « لولا الحب لم يخلـق الله فى الناس حياة ، فالحياة حب الله هى السعادة والوجود ، وفى غير حب الله هى الشقاء والفقد . وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذيـن آمنوا أشدّ حبا لله ، ولو يرى الـذين ظلموا إذ يرون العـذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شـديد العذاب ﴾ .

فالمخلوق يحن إلى خالقه بضرورة وجـوده ، لا يجد محبوبًا أسمى فى الله ، ولا يجد راحة إلا فى السكون إليـه وغنىً إلا به ، ولا جمالاً إلا فى التشوق إليه ، والخالق يحن إلى من خلق ببرّه ورحمته ، وبحكم احتياج المخلوق إلى خـالقه إلا إذا كان من الكـافرين الأشقيـاء ، أو ذل بالحب المادى حتى هلك فيه .

وهو شبيه بقول من قال : سألت ربى بأىّ شىء أصل إليك يارب ؟ فقال : اترك نفسك وتعال .

فإذا قتل حب النفس والأنانية والشهوات ، عاش لله بلا نفس ، وكانت الروح القدسية هى المتغلبة على النفس فمحتها وعاش بها محلقًا فى سماء القدس لا يهوى الدنيا وأهلها .

ويقول ذو النون المصرى : الأنس بالله نور ساطع ، والأنس بالناس سم قاطع . الشوق أعلى الدرجات والمقامات إذا بلغه العبد استبطأ الموت شوقًا إلى ربه ، وحبًّا للقائه والنظر إليه .

ويقول : مدار الطريق على أربع : حب الجليل ، وبغض الفانى القليل، واتباع التنزيل .

ويقول :

لا لأنى أنساك أكثر ذكراك
ولكن بذاك يجرى لسانى

ويقول :

ذكرنا وما كنا لننْسى فنذكرُ
ولكن نسيم القرب يبدو فيظهرُ
وأحيا به عنىّ وأحيا به له
إذ الحق عنه مخبرٌ ومعبّرُ

ومن أشعاره فى الحب الإلهى :

أنت فى غفلة وقلبك ساهى
فغدا العُمرُ والذنوب كما هى

جمــّةٌ أحصــيت عليـــك جميعـــا
في كتـــاب وأنـــت عن ذاك لاهـــي
لــم تبــادر بتـــوبـةٍ مــنك حـتى
صـــرت شيخـــًا فحبـلك اليوم واهِ
فاجتهــد في فــكاك نفســك واحــذر
يــوم تبــدو السّمــاتُ فــوق الجـباه

وتصــل الحال بـالعـارفين والعاشقين إلى أعلى درجـات الـذكـر ، والمشاهدة فيفيض البيان بما عجز عن كتمانه القلب واللسان .

يقول الشبلي الذي كان يقوم بالليل ويكتحل من الملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم :

ذكـــرتـك ، لا أنـي نسيتـــك لمحـة
وأيســرُ مـا في الذكـــر ذكـر لســاني
وكـدت بــلا وجـد أمــوت من الهـوى
وهـــام علــيَّ القلـــب بالخفقـــانِ
فلمــا أرانــي الوجــد أنـــك حاضري
شـهــدتـك مـوجــودًا بكــلِّ مكـــان
فخــاطبــتُ مـوجــودًا بغيــر تــكلم
ولاحظـــت معلــومـًا بغيـــر عـــيان

ويقـول النابلســي الـذي شغلـت أذكاره النــاس في مصر والشــام والعراق لما فيهـا من عـذوبة الإيقاع وجيشــان النغم وخفــّة الروح في أنشودة الساقي :

ساقى يا ساقى
اسقنى من خمره الباقى
واكشف لى عن قيد إطلاقى
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
أستاره راحت
عن عينى والزهرة فاحت
والسكرة بالأسرار باحت
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
اكشف لى عنّك
فى ذاتى وافتح لى دَنَّك
واجعلنى يا حِبِّى أنَّك
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى
افتح لى باب الحان
واسمعنى من طيب الألحان
وارشفنى من كأسى الملآن
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى
من يشرب يسكر
من خمرى لما يتفكّر
والمغرور فى علمه أنكر
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى

لا يعرفُ أمري
إلا من يشرب خمري
أحشاؤه تصلى فى جمري
آهٍ يا ساقى ، آهٍ يا ساقى

ويقول النابلسى فى تجليات وجه المحبوب ، وهى مقطوعة ذاعت فى حلقات الأذكار عن المتصوفة والعشاق :

تجلّى وجه محبوبى
وهذا كُلّ مطلوبى
فيانار العدا ذوبى
بعيدٌ عنكِ مشروبى
جمال الأهيفِ الزاهى
وحسنُ الأغيد الباهى
به صبرى هو الواهى
وموتى فيه مرغوبى
رأينا نوره أشرق
فكنّا برقه الأبرق
ولا نجدٌ ولا أبْرقْ
سوى الإبريق والكوبِ
علينا الخمر قد دارت
بها ألبابُنا حارت

وأطـــيار الهـــوى طـــارت
بـــترتيـــــب وأســـــلوب
ملـــيح الـكـــون وافـــانـــا
وزاد الحسْـــــنُ احســـــانـــا
وحـــــيا يـــوســــف الآنـــا
فقـــــرَّت عـــــينُ يعقـــــوب

ويروون أن أبـا حمزة الخراسانى كـان يقول : من استشعـر ذكر الموت حبّب الله إليه كل باقٍ وبغَّض إليه كل فانٍ .

وقال له رجل : أوصنى ، فقال له أبو حمزة : هئ زادك للسفر الذى بين يديك .

ومن أشعاره فى معنى الشهود والرضا بالحبيب :

أهــابــك أن أبـدى إلـيك الذى أخفى
وسرّى يبدى ما يقــول له طـــــرفى
نهـانى حـيائى منك أن أكـتم الهـــوى
وأغنيتـنى بالفــهم مــنك عـن الكشـفِ

ويروون أن سحنون المحب سئل ذات يوم عن التصوف فقال : هذا مذهب كله جِدّ فلا تخلطوه بشىء من الهزل .

ومن أقواله : من عـلامة الاغترار أن تسىء فيحسن الله إليك فتترك الإنابة والتوبة توهّمًا أنك تســامح فى الهفوات وترى أن ذلك من بسط الحقّ عليك.

ويقول : الفقير الصادق الذى يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقير .

ويقول سحنون واصفًا حال المحبين العارفين :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر
وتذكارهم وقت المناجاه للسرِّ
ولا عيْش إلا مع رجال قلوبهم
تحنُّ إلى التقْوى وترتاحُ للذكرِ
أُديرت كئوس للمنايا عليهمو
فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السُّكر
هومهمو جوّالةٌ بمعسكر
به أهل ودٌّ الله كالأنجم الزهر
فأجسادهم فى الأرض قتلى بحبّه
وأرواحهم فى الحُجْبِ نحوالعلاتسرى
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم
وما عرجوا عن مس بؤسٍ ولا ضرٍّ
سكُونٌ إلى روح اليقين وطيبه
كما سكن الطفل الرضيع إلى الحِجْرِ

وسحنون هو القائل :

كان لى قلبٌ أعيشُ به
ضاع منى فى تقلُّبه
ربّ فارددْهُ علىَّ فقد
ضاق صدرى فى تطلّبهِ

وأغثْ مادام بـى رمـــقٌ

يـا غــياث المستغيـــثِ بـهِ

ويقول الإمام القشيرى :

الغيبة غيبـة القلب عـن علم ما يجرى مـن أحوال الخلـق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب عـن إحساسه بنفسه وغيره ، بوارد من تذكر ثواب أو تفكّر عقاب .

ويروون عـن على بن الحسين أنه كان فى سجـوده فوقع حـريق فى داره فلم ينصرف عـن صلاته ، فسئل عن حـاله فقال : ألهتنـى النار الكبرى عن هذه النار .

ويقول بعض العارفين :

إن المحب يكـون فى المظهر كسائر النـاس ، لكنه فى الحقيقـة غائب عنهم فى طلـب مراده ، ويستوى عنـده الموت والحياة ، مادامـت روحه متعشقة لذات حبيبه مسلمة له فى جميع الأمور . فحياته فناؤه وفناؤه حياتـه ، ولو علـم الناس حقيقـة البقاء فى حضرة الحق وانكشـف لهم الحجاب لم يزاولوا أمـرًا من أمور الدنيا ، وترامـوا على أعتاب البقاء لما فيه من السعادة .

ومن هنا جاء شعرهم :

قـد شربنـــا مــن حبّـه فسكـــرنـــا

وعـرفنـا مــن أيـن نـأتـى الجِوارا

ودخلنـــا دار الكـــرامـــة نُـــروى

بيقين الهوى وكنـــا حيـــــارى

اعـــذرونـــا إذا نهيـــم ، فـــإنـــا
في ديـــار الهوى خُلقنـــا أُســـارى
وتـــرانا مـــن حيث نشرب في الكـــأس
سُكـــارى ولـم نكـــن بسُكـــارى
نتحـــــلّى بالعلـــم في كـــل نـــــادٍ ،
ونُـــــرى بـــالتقـــى علينـــا إزارا
فقلـــوب مثـــل الكـــواكـــب فينـــا
تُظهـــر الـــنور فهـــو لا يتـــوارى

وامتلأت كتب تـــراثنا العربى بالكثير من أجـــوبة المحبين العارفين ، أهل التصـــوف والعشق الإلهى ، لما حفلت به مـــن جوامع الكلـــم ، ومن نماذج بليغة ، رفيعة التعبير ، مشرقة البيان، فضلاً عن امتلائها بكل ما يُزيّن مكارم الأخلاق .

قيل لسهل بن عبد الله المروزيّ : مالك تكثر التصدق ؟ فقال : لـــو أن رجـــلاً أراد أن يتنقل مـــن دار إلى دار، أكـــان يُبقـــى في الأولى شيئًا؟ .

وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل : ندعو لك بالطبيب ؟ فقال : قد أردت ذلك فذكرت عـــادًا وثمودا وأصحاب الرسّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا ، وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعًا .

وقيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ فقال : محلّة الأموات .

وقيل للحســـن البصريّ : كيف ترى الدنيـــا ؟ فقال : شغلني تـــوقع بلائها عن الفرح برخائها .

وقيل للفضيل بن عياض : إن ابنك يقول : وددت أنى فى مكانٍ أرى الناس ولا يروننى .

فقال : يا ويح ابنى ، أفلا أتمها فقال : لا أراهم ولا يروننى .

وقيل لبعض الصوفية : أى شىءٍ أعجب عندك ؟

فقال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقيل لآخر : مالك كلما تكلمت بكى من يسمعك ، ولا يبكى من كلام واعظ المدينة أحد ؟

فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

وقيل للربيع بن خيثم : ما نراك تغتاب أحدًا ، فقال : لست عن حالى راضيًا حتى أتفرغ لذمّ الناس .

وقيل لعبد الله بن المبارك : حتى متى تكتب كل ما تسمع ؟

فقال : لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد .

وقيل لصوفى : ما صناعتكم ؟

فقال : حسن الظن بالله وسوء الظن بالناس .

وقيل للشبلى : لم سمى الصوفى ابن الوقت ؟

فقال : لأنه لا يأسف على الفائت ولا ينتظر الوارد .

وقيل لابن السماك : ما الكمال ؟

فقال : الكمال أن لا يعيب الرجل أحدًا بعيب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ، فإنه لا يفرغ من إصلاح عيب حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، وأن لا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفى طاعة أم فى معصية ، وأن لا يلتمس من الناس إلا ما يعلم أنه

يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم مـن الناس باستشعار مداراتهم ، وتوفيتـه حقوقهم ، وأن ينفـق الفضل من مـاله ويمسك الفضـل من قوله.

وقيل للشبلى : من الرفيق ؟

فقال : من أنت غاية شغله .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى :

دخلت على الشيخ ـ رضى الله عنه ـ وفى نفسى العزم على التجريد قائلاً فى نفسـى : « إن الوصول إلى الله تعـالى على هذه الحالة بعيـد مع الاشتغال بالعلـوم الظاهرة ووجود المخالطة للنـاس » فقال لى من غير أن أسأله :

صحبنى إنسـان مشتغل بالعلوم الظـاهرة ومتصدر فيها فذاق من هذه الطريق شيئًا ، فجاء إلىّ فقال : يا سيدى أخرج عما أنا فيه وأتجرد لصحبتك ، فقلت لـه : ما الشـأن ذاك ، ولكن امكث فيما أنـت فيه ، وما قسم الله لك على أيدينـا فهو إليك واصل ، ثم قال الشيـخ ـ ونظر إلىَّ ـ «وهكـذا شـأن الصـدّيقين لا يخرجون مـن شـىء حتى يكـون الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى » .

ويقول ابن عطاء الله :

إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء ، لغيبتهم عن الله فى كل شىء ، ولو شهدوه فى كل شىء ، لم يستوحشوا من شىء .

ويقول :

علم منك أنك لا تصبر عنــه فأشهدك ما برز منه . لـو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ، ومحو ذنـوبك لم تصل إليه أبدًا ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفــه ،ونعتك بنعته ، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه .

ويقول :

حظ النفس فى المعصية ظاهر جلىّ ، وحظها فى الطاعات باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه .

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك .

ويقول ابن عطاء الله فى استغاثاته :

إلهى : أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى .

إلهى : أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى .

إلهى : وصفت نفسك باللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى .

إلهى : إن ظهرت المحــاسن منى فبفضلــك ولك المنــة علىّ ، وإن ظهرت المساوىء فبعدلــك ولك الحجة علىّ ، ها أنا أتوســل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك ؟ أم كيف تخيــب آمالى وهى وفدت إليك ؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك ؟

وينفتح أمام قلبه باب الرجاء فيقول :

إلهى : كلما أخرســنــى لؤمــى أنطقنى كــرمك ، وكلما آيستْنــى أوصاف

أطمعتنى منّتك .

وينكر ابن عطـاء الله أن تكون الكائنات هى الشـاهد على وجود الله فيقول :

إلهى : كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟

متى غبت حتـى نحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتـى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك .

إلهى : أمرت بـالرجـوع إلى الآثار ، فـأرجعنى إليهـا بكسوة الأنـوار ، وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصـون السرّ عن النظـر إليها ، ومـرفـوع الهمة عـن الاعتماد عليها، إنك على كل شىء قدير .

ويتلهف على الوصول إلى الله فيقول :

إلهى : منك أطلب الـوصول إليك ، وبك أستـدل عليك فاهدنـى بنورك إليك ، وأقمنى بصدر العبودية بين يديْك .

إلهى : تقدس رضـاك عن أن تكون له علـة منك ، فكيف تكون لـه علّة منى ، أنت الغنى بذاتك عـن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا تكون غنيًّا عنى .

ويقـول ابـن عطـاء الله : إلهى ، إن رجـائى لا ينقطـع عنـك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلك وإن أطعتك .

ويشير الدكتور زكى مبارك فى كتابه عن التصوف الإسلامى إلى أن لابن عطاء الله كلمات سـارت مسير الشمس ، فكانت شاهـدًا على قوته

الروحية ، من بينها قوله : إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيّبنى وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى .

ويقول إسحاق بن إبراهيم السّرخسّى : سمعت ذا النون وفى يده الغل ـ أى القيد ـ بعد أن سيق إلى الخليفة المتوكل من مصر إلى بغداد مقيدًا مغلولاً لأن بعض من لم يفهموه وشوا به واتهموه فى دينه ـ وهو يساق إلى الموت والناس يبكون حوله وهو يقول :

هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه ، وكلٌّ فعاله عذب حسنٌ طيب، ثم أنشد :

لك من قلبىَ المكان المصونُ
كلُّ لوم علىّ فيك يهونُ
لك عزمٌ بأن أكون قتيلا
فيك ، والصبر عنك ما لا يكونُ

ومن أقوال ذى النون : الصوفية قوم آثروا الله على كل شىء فآثرهم على كل شىء . ومن وصاياه المأثورة عند الصوفية :

ليس بذى لبٍ من كاس (أى التزم بالكياسة) فى أمر دنياه وحمق فى أمر آخرته ، ولا من سفه فى مواطن حلمه ، وتكبّر فى مواطن تواضعه، ولا من فقد منه الهوى فى مواضع طعمه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا من زهد فيما يرغب العاقل عن مثله ، ولا من زهد فيما يزهد الأكياس فى مثله ، ولا من استقل الكثير من خالقه عز وجل ،

واستكثر قليل الشكر من نفسه لغيره ، ولا من نسى الله فى مواطن طاعته ، وذكر الله فى مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم فعرف به ثم آثر عليه هواه عند متعلمه ، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره . ولا من أغفل الشكر عن إظهار نعمته ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته ، ولا من جعل مروءته لباسه، ولم يجعل أدبه درعه وتقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرّفًا وتزيينا فى مجلسه .

ثم يقول :

أستغفر الله ، إن الكلام كثير ، وإن لم تقطعه ينقطع ، لا تخرجوا من ثلاثة : النظر فى دينكم بإيمانكم ، والتزود لآخرتكم من دنياكم والاستعانة بربكم فيما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ويقول يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى لك مع الأعمال ، لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحررها من الرياء وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟

ويروى السّراج الطوسى أن رجلًا وقف على الشبلى فقال له : أى صبرٍ أشدّ على الصابرين ؟ فقال : الصبر لله ، فقال الرجل : لا ، فقال الشبلى : الصبر مع الله ، فقال الرجل : لا ، فغضب الشبلى وقال : ويحك، فماذا ؟فقال الرجل : الصبر من الله عز وجل .

فصرخ الشبلى صرخة كادت تُتلف روحه .

ثم يقول السراج : وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : هو

على ثلاثة أوجه : متصبر وصابر وصبّار ، فالمتصبر من صبر فى الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز ، والصابر من يصبر لله وفى الله ولا يعجز ، وأما الصبّار فذلك الذى صبره فى الله ولله وبالله ، فهذا لو وقعت عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة لا من جهة الرسم والخليقة .

وبانتقال التجربة الصوفية فى التعبير عن الحب الإلهى - نثرًا وشعرًا - إلى محيى الدين بن عربى ، تزداد لغتها قوة وحرارة ورصانة، وتمتلئ بالتعابير والاصطلاحات والرموز التى يتطلب فهمها واستيعابها شروحًا وذيولاً وإفاضات تفتح بها مغاليق ذلك العالم الواسع الرحيب الذى يحلق فيه ابن عربى ويطوف ، فى مشاهد أنسه ومجالى تجلياته .

ويعده الدكتور زكى مبارك فى كتابه « التصوف الإسلامى » من طبقة الكتاب العظام ، ويرى أن نثره يمتاز بميزة عجيبة ، هى أنه لا يشغلك بالألفاظ ، وإنما يشغلك بالمعانى ، ففى كل صفحة من كتبه معركة عقلية ، فالقوة البيانية عنده قوة فكرة لا قوة تهويل .

يقول ابن عربى :

كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتى ، وهزنى حال كنت أعرفه، فخرجت من البلاط من أجل الناس وطفت على الرمل ، فحضرتنى أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى لو كان هناك أحد ، فقلت:

ليت شعرى هل دروا أىّ قلب ملكوا
وفؤادى لو درى أىَّ شعب سلكوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفىّ بيد ألين من الخز ، فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم لم أر أحسن وجهًا ولا أعذب منطقًا ، ولا أرقَّ حاشية ، ولا ألطف معنى ولا أدق إشارة ، ولا أظرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفًا وأدبًا وجمالاً ومعرفة ، فقالت : يا سيدى كيف قلت ؟ فقلت :

ليت شعرى هل دروا أى قلب ملكوا

فقالت :

عجبًا منك وأنت عارف زمانك ، تقول مثل هذا ؟
أليس كل مملوك معروفًا ؟ وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة وتمنى الشعور يؤذن بعدمها ، والطريق لسانٌ صادق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول هذا ؟ قل يا سيدى ، فماذا قلت بعده ؟

قلت :

وفؤادى لو درى أى شِعبٍ سلكوا

فقالت :

يا سيدى ، الشِّعب الذى بين الشغاف والفؤاد هو المانع له

من المعرفة ، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن يقول هذا ؟ يا سيدى ، فماذا قلت بعده ؟

فقلت :

حار أربابُ الهوى   فى الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت :

يا عجبا ، كيف يبقي للمشغوف فضلة يحار بها ، والهوى شأنه التعميم يخدر الحواس ، ويذهب العقول ، ويدهش الخواطر ويذهب بصاحبه فى الذاهبين ، فأين الحيرة وما هنا باق فيحار ، والطريق لسان صدق والتجوز من مثلك غير لائق ، فقلت :

يا بنت الخالة ، ما اسمك ؟ فقالت : قرة العين ، فقلت : لى ! ثم سلمتُ وانصرفت ثم إنى عرفتها بعد ذلك وعاشرتها فرأيت عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه واصف .

ومن الآثار الجميلة لابن عربى أبيات يقول فيها :

ذبت اشتياقًا ووجدًا فى محبتكم
فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن
ينشق صدرىَ لمّا خاننى جلدى
ما زال يرفعها طورًا ويخفضها
حتى وضعت يدى الأخرى تشد يدى

ومن منظوماته التى يقعّد فيها للتصوف ، ويضمنها خلاصة أفكاره ونظرته ـ فى الإشارة إلى الألفة بين العبد والرب ـ مقطوعة يقول فيها :

كلَّما قلت : سيدى   قال لى : أنت مالكى
سدَّ والله كون   عبدى علىَّ مسالكى
مالنا عنه صارف   فى جميع المداركِ
لستُ فى عينه ولا   فعلهِ بالمشاركِ
فهو المالك الذى   ليس يدعى بمالكِ
وأنا الخادم الذى   يعْتنى بالممالكِ
قلت ياربِّ عصمة   من سبيل المهالك
قال : سمعا فأنت عبدى   من أهل الأرائك
فى سرورٍ وغبطةٍ   لا من أهل الدرائك

ويوضح الدكتور محمود قاسم فى كتابه عن (الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى) كيف سبق ابن عربى شعراء الرومانتيكية فى العصر الحديث إلى إدراك أن الخيال أعظم قوة خلقها الله ، وهو يرمى فى المقام الأول إلى الربط بين الكشف الصوفى وهذه القدرة التى يصفها بأنها استمرار لعملية الخلق الإلهى : « فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجودًا من الخيال ، فبه ظهرت القدرة الإلهية والاقتدار الإلهى ، فهو أعظم شعائر الله على الله ، ومن قوة حكم سلطانه ما تثبته الحكماء ، مع كونهم لا يعلمون مما قالوه ، ولا يوفونه حقه ، وذلك أن

الخيال ـ وإن كان من الطبيعة ـ فله سلطان عظيم على الطبيعة بما أيده الله من القوة الإلهية » .

ومن هنا كان تفسير ابن عربى لما أنعم به الله عليه من فتوحات ضمنها كتابه « الفتوحات المكية » القائم على أن هذا الكتاب ليس إلا وليد تلك الصور الخيالية التى كان يتلقاها ـ كمحب ـ بعين الخيال فى حال اليقظة وأحيانًا فى أحلامه ، ويصف هذا كله بأنه نوع من الإلقاء الإلهى الذى ينزل على قلبه . ويلحّ ابن عربى ـ خشية المسارعة إلى اتهامه ـ فى تأكيد أن ما يتلقاه من فيوض وفتوحات ليس شبيهًا بالوحى الذى اختص الله به رسله إذا انقطعت النبوة والرسالة بموت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما هو جود إلهى ، أو هو ضرب من الحكمة ، تلك الحكمة التى لا يعلمها إلاّ من أوتيها « فهى هبة من الله تعالى » كما وهبنا وجود أعياننا ولم نكن شيئًا وجوديًّا .. وهذا الكتاب من ذلك النمط .. فوالله ما كتبت منه حرفًا إلا من إملاءٍ إلهى ، وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روع كيانى .. هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسل مشرعين ولا بأنبياء مكلفين ، فإن رسالة التشريع ونبوة التكليف قد انقطعت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا رسول بعده ، ولا نبى يشرع ولا تكليف ، وإنما هو علم وحكمة وفهم من الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله .. وما خط فى لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق ، فالتنزيل لا ينتهى بل هو دائم دنيا وآخرة :

الله أنشأ من طىٍّ وخولان
جسمى ، فعدلنى خلقا وسوانى

وأنشـــأ الحق لى روحـــا مطهـــرة
فليـس بنيـان غيرى مثـل بنيـانـى
إنــى لأعرف روحــا كــان ينزل بــى
مــن فــوق سبع سماوات بفـرقـان

يريد قوله تعالى : ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ﴾ .

[سورة الأنفال : الآية ٢٩]

ويؤكد الدكتور محمود قاسم (١) كما يؤكد سائر الباحثين أن ابن عربـى فى نثره وشعـره ـ لم يحب أحـدًا فى الحقيقة سـوى الله ، ولكنه احتجب عن الله تعالى بحب زينب وسعاد وهند وليلى والدينار والدرهم، فكل هذه الضروب من الحب ليسـت إلا صورًا أو رموزًا لحقيقة كبرى لا يمكن التعبير عـن جمالها وجلالها ، إلا إذا سلك العاشـق لها سبيل الغزل والتشبيب لكـى يصور فيها ما استطاع ، ما يختلـج بفؤاده من حب وهيام .

يقول ابن عربى :

كـل مــا أذكـره مـن طلـل ... أو ربـوع أو مغان كـل مــا
وكذا إن قلــت ها أوقلــت يا ... وألا ، إن جــاء فيه ، أو أمــا
وكذا إن قلت هـى أوقلت هو ... أوهمو،أوهنّ جمعًا ، أو هما
وكذا إن قلــت : قد أنجـد لى ... قــدر فى شعـــرنــا أو أتـهما
وكذا السحب إذا قلــت بكت ... وكذا الـزهر إذا مــا ابتسما

---

(١) الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى (فصل عن الحب الإنسانى والحب الإلهى) للدكتور محمود قاسم .

أو أنــادى بحـداةٍ يمميــوا　　　بانة الحاجز أو ورق الحمى
أو بـدور فى خــدودٍ أفلـت　　　أو شموسٍ أو نبـاتٍ أنجما
أو بروق أو رعـودٍ أو صبا　　　أو ريـاح أو جنـوب أوسما
أو طـريق أو عقيـق أو نقـا　　　أو جبـالٍ أوتــلال أو رمـا
أو نســاءٍ كــاعبـات نُهدٍ　　　طالعات كشموس أو دمــى
كـل مـا أذكره ممـا جـرى　　　ذكــره ، أو مثلـــه أن تفـهما
منـه أسرار وأنــوار جلـت　　　أو علت جـاء بها رب السما
لفـؤادى أو فـؤادِ مــن لـه　　　مثل مـالى من شروط العُلما
صفـة قـدسيــةً علـويـة　　　أعلمـت أن لصدقـى قدمـا
فاصرف الخاطرعن ظاهرها　　　واطلب الباطـن حتى تعلما

ومن هنا يمكن تذوق وتفسير الكثير من الآثار الشعرية لابن عربى، فى الحب الذى وجـده ذوقا ، ففاق كـونه عشقـا مفرطا ، وهـوى مقلقا وغراما ونحولا ، وامتناع نوع ، دون أن يتحدد المحبوب .

يقول ابن عربى :

علقـت بمـن أهـواه عشريـن حجـة
ولم أدر ما أهوى ، ولم أعرف الصبرا
ولا نظـرت عينى إلى حســن وجهـهـا
ولا سمعـت أذنـاى قـــط لها ذكـرا
إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى
فنعمنـى يـومـا ، وعـــذبنـى دهـرا

ويقول فى المعنى نفسه :

علقت بمن أهـواه من حيث لا أدرى
ولم أدر من هـذا الذى قـال لا أدرى
فقد حرت فى حالى وحارت خواطرى
وقـد حـارت الحيرات فىّ وفى أمـرى
فبينـا انـا مـن بعـد عشريـن حجـة
أتـرجـم عـن حـب يعـانقـه سرى
ولم أدر من أهوى ، ولا أعـرف اسمه
ولم أدر من هذا الـذى ضمَّه صدرى
إلى أن بـدا لى وجههـا مـن نقـابها
كمثـل سحاب الليـل أسفـرعن بـدر
فقلـت لهم : مـن هـذه ؟ قيـل هـذه
بُنَيَّةُ عين القلـبِ ، بنت أخـى الصدر
فكبرت إجـلالا لها ، ولأجلهـا
فليلى بها أربـى على ليلـة القـدرِ

ويروى ابن عربى فى كتابه ، « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار » حديثًا عن ابن باكويه عـن أبى الفضل القطان عن جعفر الخلدى قال : سمعت الجنيد يقول : حججت على الوحدة فجاورت مكة فكنت إذا جن الليل دخلت أطوف ، فإذا بجارية تطوف وهى تقول :

أبى الحب أن يخْفـى وكم قـد كتمته
فـأصبـح عنـدى قـد أنـاخ وطنّبـا
إذا اشتـد شـوقى هـام قلبى بـذكره
وإن رمـت قربـامن حبيبـى تقربـا

ويبدو فأفنى ، ثم أحيا بذكره
ويسعدنى حتى ألَذَّ وأطربا

فقلت لها : يا جارية ، أما تتقين الله فى هذا المكان ، تتكلمين بهذا الكلام ؟ فالتفتت إلىّ وقالت : يا جنيد :

لولا التقى لم ترنى أهجر طيب الوسن
إنَّ التقى شردنى كما ترى عن وطنى
أفر من وجدى به فحبه هيّمنى

ثم قالت : يا جنيد ، تطوف بالبيت أم برب البيت ؟ قلت أطوف بالبيت . فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك ، ما أعظم شأنك فى خلقك ، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار ، ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجار يبغون قربةً
إليك ، وهم أقسى قلوبًا من الحَجرْ
وتاهوا ، ولم يدروا من التيه من همو
وحلوا محل القرب فى باطن الفِكرْ
فلو صدقوا فى الود غابت صفاتهم
وقامت صفات الود للحق فى الذِّكرْ

قال الجنيد : فغشى علىَّ من قولها ، فلما أفقت لم أرها .

والمتأمل فى آثار هؤلاء المتصوفة والعشاق الهائمين فى ساح الحب الإلهى يرى أنها تصدر عن مبدأين يحكمان الأمر كله ، أولهما أن العقل الإنسانى وحده غير كاف فى الهداية إلى الله ، فليس فيه غناء فى هداية

الإنسان إلى الإيمان الحق . ومن هنا ، فهم جميعًا يلجأون إلى القلب واستشعار الحب الإلهى طلبًا لنور الهداية والإشراق العلوى . وهى السبيل المألوفة للنجاة عندهم . فالعقل - فى رأيهم - لا يستطيع حل كثير من المسائل .

يقول الغزالى وهو يتحدث عن الصوفية : « وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات[1] وكان قد حصل معى من العلوم التى درستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، واليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها » .

ويوضح الغزالى أن وصوله إلى طريق الأمن واليقين لم يكن بنظم دليل وترتيب وكلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر :

« وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، ومادام الأمر للذوق والكشف ، فطريق الصوفية إذن مفتاحها هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله » .

والمبدأ الثانى فى فكر هؤلاء المتصوفة من العشاق أن العاطفة

---

(١) المنقذ من الضلال - للغزالى تقديم الدكتور / عبد الحليم محمود .

لا العقل هـى السبيل للوصـول إلى الله ، يقول الغزالى « كـان ذلك أول حال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ـ حين تبتـل ، حين أقبل إلى غار حراء حين كان يخلو فيـه بربه ويتعبد ، حتى قالـت العرب : إن محمدا عشق ربه » .

وهكذا كان الحب الجسـدى فى آثار هؤلاء العشاق طـريقًا إلى الحب الإلهى ، إذ الجمال فى الخليقـة مـرآة جمال الله ، وهـؤلاء يـذهبـون فى شرحهـم لخلـق الكـون إلى أن الأصـل فيـه الجمال الإلهى ، وذلـك أن الصفة الجوهريـة فى الجمال هـى أنه بطبعه ميـال إلى الظهور والإيحاء بنفسه . وهذا هو الباعـث لدى الجمال الأقدس أن يخلق ليعرف بهم ، ويعتمد الصوفية فى هذا على الحديث القدسـى : « كنت مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ، فبى عرفونى » .

ولما أراد ذو الكمال المطلق والجمال الاسمى أن يعرف ، كان لابد أن يعـرف بمخلوقـات فيها نقـص وفيها شر ، ليـدل نقصهم على كمالـه وخيره كما يدل الظلام على النـور ، وقد بقيت بالضرورة فيهـم لمحات من أنوار مشوبة بألوان ظلمات ، وهذه اللمحات هـى مرآة النور المطلق الـذى لا لون لـه ، وتنأى الخلائق عـن الله بمقدار انغماسـهـا فى المادة وظلماتها ، لأنها تبعد بذلك عن النور المطلق المتصف به واجب الوجود. وتقرب مـن الكمال بمقدار بعدهـا عن ظلمات المادة وتعلقها بمظـاهر الجمال والخليقـة ، وهذا الجمال هـو مرآة ذى الجلال ، حتـى ترقـى بالحب الإلهى إلى الفناء فى الذات الإلهية ، وتعـود بذلك إلى أصلها الذى صدرت عنه . فـالجمال الإلهى هو الأصل فى الخليقة ، والفنـاء فيه عن

طريق المحبة هو طريق الارتقاء إلى العلم الأقدس ، ومن أسباب المحبة التأمل فى جمال الوجود ، إذ أن ذلك الجمال فيض من جمال واجب الوجود .

فهؤلاء العشاق من المتصوفة ـ بتأملهم فى جمال الخلق ـ يتقربون إلى جمال الحقّ ، وبطول تأملهم فيه ، يعتريهم ذلك الشعور الفياض ، الذى يستغرقون فيه ـ حتى يصلوا إلى حالة الوجود ـ ويغيبون عن وعيهم الحسّى ويعتريهم من الهيام بالله ما يرقصون فيه طربًالاهجين بذكر الله أو مردِّدين اسمه على لسانهم فى حلقات الذكر .

* * *

وهذه النماذج المختارة من قصائد الحب الإلهى عند أشهر العشاق والمتصوفة وأصدقهم تجربةً ووجدا ذات قيمة فنية وإنسانية رفيعة ، حتى وإن لم نستطع الوصول إلى أعماق معانيها ودلالاتها الخبيئة . فهى أولاً تجارب حياتية صادقة لدى هؤلاء المتصوفة الحقيقيين الذين لم يكونوا فى طريقهم أو مذهبهم بأدعياء . ومن شأن هذه التجارب الصادقة أن تثرى الحياة إذا انسكب تصويرها والتعبير عنها من خلال أقلام ذوى المواهب والقدرة ، وفى هذا يفترق الأدب الصوفى عن أدب الصنعة والتكلف ، وعن أدب التكسب والارتزاق الذى منى به الشعر الغنائى العربى ، فاستنفد طاقات شعرية خلاقة أو كاد يستنفدها ، كانت جديرة بما هو أرقى وأسمى من عطاء الفن والخلود لو انصرفت إلى تصوير ما عانته من تجارب الحياة والعصر ، مخلصة فى التعبير عن هواجس النفس وهموم الذات وتجارب الوجدان . ولقد

كان الصدق دعامة الأدب الصوفى فى عصوره الأصلية ـ قبل أن يدركه التقليد على أيدى فقراء الموهبة وفاقدى التجربة ـ وكان صدق التناول فيما بين الشاعر ونفسه سبيلا إلى التجويد فى التعبير عن حميّا هذه التجارب ونضج تصويرها الفنى .

ومن هنا ، يلاحظ المتأملون فى هذه النماذج الرفيعة ، أن أدب الصوفية فى شعرهم ونثرهم ـ يخفى دلالته الايجابية المستترة على الرغم من مظهره السلبى الخادع وطابع تشاؤمه الموغل فى الحزن . ذلك أن هذا الأدب ـ فى مجموعه ـ كان هروبًا من الحياة وانسحابًا من الواقع المثقل بالأسى والظلم والتخلف ، ولكن المتصوفة عرفوا كيف يضفون على هذا الهرب أبعادًا تتجاوز مجرد الشكوى والأنات ، وحزن الضعف والتوانى ـ عندما هربوا بفكرهم إلى الطبقات العليا من أجواء الروح المتعالية والنفس المتسامية والخيال الحرّ الطليق .

صحيح أن هؤلاء الصوفية ـ من العشاق ـ قد عزفوا عن نشدان السعادة فى هذه الحياة ، لأنهم يائسون من الظفر بها فى الحياة الدنيا ، واتجهوا مخلصين إلى نشدان سعادتهم فى العالم الآخر داعين إلى التعجيل بالرحيل من هذه الدنيا عازفين عن كل ما تحفل به من ماديات ومتع موقوته ، ولكنهم فى تبرير مسلكهم هذا قد صوروا ـ فى صدق وروعة وأصالة ـ ما حفلت به عصورهم من شرور ومآثم ، وكانوا فى هذا المجال أعمق إدراكًا وأقوى دلالة من سواهم من الكتاب والشعراء الذين جاروا عصورهم ومالئوا المستبدين بها ، وتستروا على ما زخرت به من زيف وطغيان ، وقد كان هذا الطغيان فى أكثر حالاته طغيان

سلطان المال فى تلك المجتمعات التى استبد فيها سلطان الفرد كما انسحقت الغالبية تحت رحى الإقطاع فتلاشت مواهب كثيرة ، وتبددت طاقات خلاقة ووئدت أصوات كانت تُبشّر بانطلاقات جديدة عارمة ، وانطمست معالم الرأى السليم والفكر الناضج .

لهذا ، فلن نجد فى تاريخ الآداب الإسلامية هجاء للملوك والمستبدين أشد مما صدر عن الصوفية ، ولا ضيقًا بالمال وعُباده والمستعبدين للناس عن طريقه كما نجد فى أشعار الصوفية وأدبهم كلّه . إلى جانب ما قضوا به على الأثرة وحبّ الذات فيما صوروا ودعوا، فالحب عندهم ـ يجب أن يتسع مجاله لحب الإنسان وخدمته والرثاء له وهدايته ، دون بغض لأحد أو انتقام من أحد . ولعل « الحلاج » ـ الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ـ أكثر من التصقت به هذه الإيجابية بين الصوفية ، وتتفق الروايات القديمة فى سوقها لأخباره على الإشارة إلى دوره البارز فى عصره حين دعا إلى مذهب سياسى وروحى يقوم على فقه معين ورياضيات صوفية تتميز كلها بالتطرف والشدة والإصرار على الوصول إلى الهدف مستهينًا بالعقبات ولو بلغت الموت نفسه ، وحاول أن يجد له أنصارًا بين الفقراء والطوائف المختلفة والمعارضين للدولة العباسية دون جدوى .

وفى أثناء القحط والمجاعة وخطر الدولة الفاطمية ـ على الدولة العباسية الموشكة على السقوط أمامها ـ وارتفاع الأسعار ، وكسر السجون وإحراق الجسور وسقوط الوزارة وعزل الخلفاء ، وجد الوزير حامد بن عباس أن قتل الحلاج قد يشغل الناس ويخفف من

التوتـر الاجتماعى والسيـاسـى ويلقــى الرعـب فى قلوب المعــارضـين ، وانتهى الأمر بالحكم على الحلاج بالإعدام ، ضرب ألف جلدة ثم قطعت أطرافـه الأربعة وضربت عنقه وأحـرقت جثته ثم ذرى رمـاده فى دجلة وحمل رأسـه إلى خـراسـان حيث كـان لـه فيهـا أصحـاب وأتبـاع ومريدون[1].

يقول الحلاج فى وصف موعد حب :

لى حبيـــب أزور فى الْخلــوات
حــاضر غــائب عــن اللحظــات
مــا تــرانــى أصغــى إليــه بسرى
كــى أعــى مــا يقــول مــن كلمات
كلماتٍ مــن غير شكــلٍ ولا نقْــطٍ
ولا مثــل نغْمــةِ الأصـــواتِ
فكـــأنـــى مُخاطــبٌ كنــتَ إيـّـاه
على خــاطــرى ، بـذاتــى لــذاتــى
حــاضرٌ غــائب قـــريـــبٌ بعيــدٌ
وهـــو لم تحْوهِ رســومُ الصفــاتِ
هــو أدنــى مـن الضمير إلى الـوهــم
وأخفـــى مـــن لائح الخطـــراتِ

ويقول الحلاج ـــ وهو معنى انتهبـه من بعده كثير مـن الشعراء ،

---

(١) ديوان الحلاج « المقدمة » تحقيق الدكتور / كامل مصطفى الشيبى (بغداد) .

وأداروه على محاور عدة فى الغزل الحسّى ، بما يخرجه عن طابعه الصوفىّ الأصيل ـ :

أنـا مـن أهـوى ، ومـن أهـوى أنـا
نحـن روحـان حَلَلْنـا بـدَنـا
نحـن ، مـذكنـاً على عهـد الهوى
نَضربُ الأمثـال للنـاس بنـا
فـإذا أبصْرتنـى أبصْرتـه
وإذا أبصـْرتـه أبصـرْتنَـا
أيها السـائل عـن قصّتنـا
لـو تـرانـا لم تُفـرق بيْننـا
روحـه روحـى وروحـى روحـه
مـن رأى روحين حلَّـت بـدَنـا

ومن الأشعار المنسوبة إلى الحلاج ، والعميقة الدلالة فى الإبانة من مذهبه وأسلوبه فى تمثل الحب الإلهى ، مقطوعة ذاعت شهرتها على الألسنة والأقلام ونسب بعض أبياتها إلى شعراء آخرين من شعراء العصر العباسى وأصبح جزءًا من تراثه الغنائى .

يقول فيها الحلاج :

والله مـا طلعـت شمس ولا غـربـت
إلا وحبـّك مقـرونٌ بـأنفـاسـى
ولا جلسـتُ إلى قـوم أُحـدّثهـم
إلا وأَنـت حَـديثـى بين جُـلّاسـى

ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا
وإلا وأنت بقلبى بينَ وسواسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش
إلا رأيت خيالاً منك فى الكاس
ولو قدرْت على الإتيان جئتكمو
سعيًا على الوجه أو مشيًا على الراس
ويا فتى الحىِّ إن غنيتَ لى طربًا
فغنِّ وارحْمتَا من قلبك القاسى
ما لى وللناس كم يلحوْننا سفهًا
دينى لنفسى ودين الناسِ للناسِ

ويبدو أن المستشرق الفرنسى ما سينيون هو صاحب الفضل فى إحياء ذكر الحلاج منذ بداية القرن العشرين ، عندما نشر ديوانه وكتابه الهام الطواسين والنصوص التى دارت حوله ، ونبّه إلى أهمية الحلاج من خلال رسالته عنه التى أسماها « عذاب الحلاج » ومقاله الهام الذى أسماه « المنحنى الشخصى فى حياة الحلاج » حيث تحدث عن عظاته ومواجده وبثه للآراء الإصلاحية واتصاله ببعض وجوه الدولة العباسية وجمع الفقراء من حوله ، مما أدى إلى نهاية الحلاج المأساوية جزاء فكره وثوريته ، وهو المعنى نفسه الذى أخذ به الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور حين كتب مسرحيته الشعرية عن مأساة الحلاج ، جاعلاً منه داعية ورمزًا للثورة والتمرد ونصيراً للفقراء والمعدمين ، وشهيدًا من شهداء الكلمة والإيمان بالحرية .

يقول صلاح عبد الصبور على لسان الحلاج :

أراد الله أن تجلى محاسنه وتستعلن أنواره
فأبدع من أثير القدرة العليا مثالاً صاغه طينا
وألقى بين جنبيه ببعض الفيض من ذاته
وحلاه وزينه ، فكان صنيعه الإنسان
فنحن له كمرآةٍ ، يطالع فوق صفحتها
جمال الذات مجلوا ، ويشهد حسنه فينا
فإن تصْفُ قلوب الناس ، تأنس نظرة الرحمن
إلى مرآتنا ، ويديم نظرته ، فتحيينا
وإن تكدُرْ قلوبُ الناسِ يصرفْ وجهه عنَّا
ويهجرنا ويجفونا
وماذا يفعل الإنسان إن جافاه مولاه ؟
يضيق الكون فى عينيه ، يفقد ألفة الأشياء
تصير الشمس فى عينيه أذرعةً من النيران
يُلقى ثقلُها المشّاء
على وجه السَّما والأرض ألوانا من اللهب
ويضحى البدر دائرةً مهشمة رمادية
من القصدير ميتةً وملقاة على بيداء
فقد جفّت عيون الناس ، أضحت نقطة سوداء
وتذوى أذرعُ الأشجار ، تلقى حملها للأرض
وتدفنه كمجهضة تُكفّنُ عارهَا فى الطين

ويمشي القحطُ في الأسواقِ ، يجبي جزيةالأنفاس
من الأطفال والمرضى
حقيبته بلا قاعٍ ، فلا تُملأ إذ تعطى
ورغبته بلا ريٍّ ، فلا تسكت أن تسأل
وخلفَ القحطِ ، يمشي تحت ظلِّ البيرقِ المُسْدلْ
جنودُ القحْطِ ، جيش الشرِّ والنقمة
خلائقهم مشوهةٌ ،كَأَنَّ الذيلَ فوق الرأس
يقود خطاهمو إبليس وهو وزيُر مُلْكِ القحْط
وليس القتل والتدجيلُ والسَّرقُ
وليس خيانةُ الأصحاب والمَلَقُ
وليس البطشُ والعدوانُ والخَرَقُ
سوى بعض رعايا القحْطِ ، جند وزيره إبليس
تعالى الله ، قد يأنفُ أن ينظر في مرآتنا ذاته
فيصرف وجهه عنَّا ،
فكيف إذن نُصفّي قلْبنَا المُعتمْ
ليستقبل وجه الله ، يستجلي جمالاته
نُصلِّي ، نقرأ القرآن ،
نقصد بيته ، ونصوم في رمضانْ
نعمْ ،
لكنَّ هذي أول الخطوات نحو الله
خطى تصْنعها الأبدان

وربّى قصدُه للقلب
ولا يرضى بغير الحبّ
تأمل ، إن عشقتَ ألسْتَ تبغى أن تكون شبيه محبوبِكْ
فهذا حبنا لله
أليس الله نور الكون !
فكن نورًا كمثلَ الله
ليستجلى على مرآتنا حسْنه

وحين يقف الحلاج بين يدىْ جلّاديه من قضاة عصره ـ الذين باعوا ضمائرهم للسلطان وأعمتهم الغواية عن رؤية الحق ومعاينته فأصدروا حكمهم من قبل أن تبدأ المحاكمة ـ يهدر صوت الحلاج فى مسرحية صلاح عبد الصبور مُلوحًا فى وجه هؤلاء الذين يحاكمونه بأنهم ليسوا قضاته ، ولذا فلن يدافع عن نفسه ضدّ اتهامه بإفساد صعاليك العامة .

يقول الحلاج :

أنا رجلٌ من غمارِ الموالى ، فقير الأرومة والمنْبتِ
فلا حسبى ينتمى للسمّاءِ ، ولا رفعتْنى لها ثروتى
ولست كآلافِ مَنْ يولدون بآلاف أيامِ هذا الوجود
لأن فقيّرا بذات مساءٍ سعى نحو حضنِ فقيرة
وأطفأ فيه مرارةَ أيامه القاسية
نموت كآلاف من يكبرونَ ، حين يقتاتون خُبزَ

الشموسْ
ويُسقونَ ماءَ المطرْ
وتلقا همو صبيـةً يافعين حـزانى على الطـُرقاتِ
الحزينة
فتعجب كيف نموْا واستطالوا وشبت خُطاهمْ
وهذى الحياةُ ضنينةْ
تسكّعـت فى طـُرقاتِ الحيـاةِ ، دخلـت سراديبهـا
المُوحشاتْ
حجبت بكفى لهيب الظهيرة فى الفلوات
وأشعلت عينى ، دليلى ، أنيسى فى الظلمات
وذوّبت عقلى ، وزيت المصابيح ، شمس النهار
على صفحات الكتب
لهثت وراء العلوم سنين ، ككلب يشم روائح صيد
فيتبعهـا ، ثـم يحتـال حتى ينـال سبيـلا إليهـا
فيركض ، ينقض
فلـم يسعد العلـم قلبى،بـل زادنى حيرة واجفـة
بكيت لها وارتجفت
وأحسسـت أنـى وحيد ضئيل كقطرة طـل، كحبة
رمل
ومنكسر تعس ، خائف مرتعد
فعلمىَ ما قادنى قط للمعرفة

وهبنى عرفت تضاريس هذا الوجود
مدائنه ، وقراه ووديانه ، وذراه
وتاريخ أملاكه الأقدمين
وآثار أملاكه المحدثين
فكيف بعرفان سر الوجود ، ومقصده ، مبتدا أمره، منتهاه
لكى يرفَعِ الخوفَ عنّىَ،خوْفَ المنونِ، وخوْفَ الحياةِ، وخوفَ القَدرْ
لكى أَطمئن .
سألت الشيوخَ ، فقيل :
تقَرَّبْ إلى الله ، صلِّ ليرفعَ عنك الضلالَ ، صلِّ لتسعدْ
وكنت نسيتُ الصلاة ، فصلَّيْتُ لله ربِّ المنونِ ، وربِّ الحياة ،وربِّ القَدرْ
وكان هواءُ المخافة يَصْفِرُ فى أعظمى ويئزّ كريحِ الفَلا
وأنا ساجدٌ راكعٌ أتعبدْ
فأدركتُ أنىَ أعبدُ خوفىَ لا الله
كنت به مشركًا لا موحِّد
وكان إلهىَ خوفى
وصليتُ أطمعُ فى جنته

ليختالَ فى مُقلتىَّ خيالُ القصورِ ذوات القبابْ
أسمع وسوسة الَحلْىِ ، همسَ حرير الثيابْ
وأحسسْتُ أنى أبيع صلاتى إلى الله
فلو أُتقنت صَنعة الصلوات لزادَ الثمن
وكنت به مشركًا لا مُوحدْ
وكان إلهى الطمع
وجير قلبى الطمع
تُرى ، قُدِّر الشركُ للكائنات
وإلا فكيف أصلى له وحده
وأُخلى فؤادىَ عما عداه
لكى أَنزع الخوْفَ عن خاطرىِ لكى أطمئن
لكى أطمئن

فى هذه المونولوجات الطويلة على لسان الحلاج ، يتضح مدى استيعاب صلاح عبد الصبور لأدقّ أسرار التجربة الصوفية ، عند كبار العشاق والمحبّين ، من نفى للقدرة على المعرفة بواسطة العقل ، فالقلب هو المدخل والطريق ، ورفضٍ لفكرة أن تكون العبادة قائمة على مجرد الخوف أو الطمع ، حتى يكون أساسها المحبة والتوجه الخالص ، والذوبان والفناء فى المعشوق ، عندئذ ينتزع الخوف من المحب وتسكنه الطمأنينة ويتحرر من الرغائب والشهوات . ويستمر صوت « الحلاج » يفيض بالتحدى ويبتل بالمزيد من الشجون ، ويبْدىَ بلغة الإفضاء ومكاشفة الأسرار :

كما يلتقى الشوقَ الصحارى العطاشِ ، بشوقِ
السحابِ السخىّ
كذلك كان لقائى بشيخى
أبى العاص عمرو بن أحمد ، قدَّسَ تُرْبتَه ربُّه
وجمَّعنا الحبُ ، كنت أحب السؤال ، وكان يُحب
النّوال
ويُعطِى ، فيبتلُّ صخرُ الفؤاد
ويُعطى ، فيخضر غصْنى
ويعطى ، فيُزهر نُطقى وظنّى
ويخلعُ عنى ثيابى ، ويُلبسنى خِرْقةَ العارفينْ
يقولُ هو الحب ، سر النجاةِ ، تعشَّق تفز
وتْفنَى بذاتِ حبيبك ، تصبحُ أَنتَ المصُلّى ، وأنتَ
الصلاة وأنت الديانةُ والربّ والمسجدُ
تعشَّقتُ حتى عشقتُ
تخيلتُ حتى رأيت
رأيت حبيبى ، وأتحفنى بكمالِ الجمال، جمال
الكمالْ
فأتحفته بكمال المحبة
وأفنيتُ نفْسىَ فيه

* * *

هذه السطور العامرة بنفحات الوجد وحرارة المعانة وفرح المعاينة والانكشاف هى دليل على امتداد خيوط التجربة الصوفية فى العشق الإلهى حتى يومنا هذا ، وكيف أن التألق فى التعبير عنها رهن بتوافر الصدق الشعورى الذى يتوهج من خلال قيم التعبير ، لتكتمل لهذه التجربة أبعادها فى الحس والتذوق وآثارها فى القلب والوجدان .

ولسوف تستمر هذه الخيوط والروافد ، مستمرة وممتدة ، فى رحلة الإنسان مع الكون ، ما بقى هذا الإنسان ، وما استمر انخلاعه وانخطافه نحو المجهول ، واحتضانه لطمأنينة الإيمان واليقين ، وتوجهه بالمحبة الكاشفة التى تنفض عنه الخوف وتملأ زوايا نفسه بالخشوع ، وتفجر هذا الشعر الأصيل النبيل ، المتوهج بعطاء الرحلة ، المثقل بمخاطر الترحال .

فمادام المحبوب هو الحق ، فإن العارف يظل دائم المشاهدة له وكلما ازداد مشاهدة زاد هياما ووجدا فالاشتياق يهيج باللقاء ، ويُظمئه الوصال ، وتشعله المعاينة ، وكلما اجتمع العاشق بمحبوبه أدرك أنه لا يشبع من مشاهدته ولا يروى ظمأه منه ، فكلما نظر إليه زاد وجدًا به وشوقاً مع حضوره معه .

ومن عجب أنى أحنُّ إليهمو
وأسأل شوقًا عنهمو وهمو معى
وتبكيهمو عينى وهم فى سوادها
وتشتاقهم نفسى وهم بين أضلعى

تعاظمني ذنبي

للإمام الشافعي

« تعـاظمنـي ذنبـي ، فلما قـرنْتـه
بعفْـوك ربّـي ، كـان عفْـوكَ أعْظمَا
ومازلْـتَ ذا عفو عن الذَّنْـبِ ، لم تَزلْ
تجودُ وتعفـو منّـةً وتكـرمـا »

« هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ، يتصل نسبه بنسب الرسول الكريم ، ولـد بغزة ، ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، «وحُببَ إليه العلم منذ صباه فجـالس العلماء وأخذ عنهم ، ثم وفد على الإمام مالك فى المدينة وحفظ الموطّـأ ، ثم ارتحل إلى اليمن فالعراق ينشر علم الحديـث وفقه السنة ويستخـرج الأحكام ثم جـاء إلى مصر سنة مـائة وتسـع وتسعين هجـريـة، وصنّف فيهـا مـذهبـه وألف فى علـم الأصـول ، واعترف لـه الناس بـالإمامـة وأصبح أحـد الأئمة الأربعـة المجتهدين . وتوفى بمصر سنة مائتين وأربع هجرية عن أربع وخمسين سنة » .

يقول الإمام الشافعي :

إليــكَ إلــه الخلــق أرفــعُ رغبتـــي
وإن كنــتُ يا ذا المن والجودِ مجرمــا
ولما قســا قلبــي وضَـاقــتْ مــذاهبــي
جعلْــتُ الـرَّجــا منــي لعفْــوِكَ سُلما
تعــاَظَمنـــي ذنبــي فلما قــَرنتــهُ
بعفــوكَ ربـــِّي كــان عفـــُوكَ أَعْظَمَا
ومازلْــتَ ذا عْفوٍ عــن الَّذنــبِ لم تَزلْ
تجوُّد وتعفـــو منـــّــةً وتكـــرمـــــا
ولــولاك مــا يقْــوى بإبليــس عــابـدٌ
وكيــف وقــد أغــْوى صفيَّكَ آدمــا
فــإن تعــفُ عني تعـفُ عــن متمــرد
ظلـــوم غشُــومٍ لا يـــزايـلُ مـــأْتماَ
وإن تنتقــمْ منـــِّـي فلســْتُ بــآيــسٍ
ولو أدخلــتْ نفسـي بِجُـرمِي جَهنَّمًا
فجــرمي عظيــمٌ من قــديمٍ وحــادثٍ
وعفــْوُك يــأتــي العبــدَ أعلَى وأجْسَما
تعــاظمني ذنبــي ، فأقبلــت خاشعًا
ولــولا الرضــا مــا كنت يــاربِّ منعما

حـوالى فضـلُ الله مـن كـلِّ جـانـب
ونـورٌ مـن الـرحمن يفترشُ السَّما
وفى القلـب إشراقٌ المُحـب بـوَصْلـهِ
إذا قـارب البشرى وجازَ إلى الحمـى
حـوالى إينـاسٌ مـن الله وحـْدَهُ
يُطـالعنـى فى ظُلمـةِ القلـْبِ أنجُما
أصـون ودادى أن يـدنّسـهِ الهوى
وأحفـظُ عهـدَ الحبِّ أن يتثلَّما
ففى يقْظتـى شوقٌ وفى غَفْوتـى مُنىً
تـلاحـق خَطْوى نشـوةً وتـرنّما
ومن يعتصـم بالله يسلمْ مـن الورى
ومـن يـرجُـهُ هيهـات أن يتنـدَّمـا
إليـك إلـه الخلـقِ ، أرفـُع رغْبتـى
وإن كنتُ ياذا المنّ والـوجودِ مجرما

هــوانا حجــازى

لأبى حمزة الخراسانى

أراك وبــى مــن هيبتــى لــك وحشــةٌ
فتُؤنسنــى باللطــفِ منك وبــالعطفِ
وتُحيــى مُحبــا أنــت فى الحب حتفــه
ومن عجــبٍ كونُ الحياة مــع الحتْفِ

« هو أبو حمزة الخراسانى من كبــار أعلام القرن الثالث الهجرى ، أقام بنيسـابور وصاحب الجنيـد والخراز وأبا تراب ، وذاعت له شـهرة واسعة بفضل علمه وورعه وتقاه ، توفى سنة مائتين وتسعين هجرية ، وله قصائد تفيـض بصدق العاطفة الدينيـة وسُموّ الحب الإلهى ، من بينها هذه المقطوعة التى أنشدها فى معنى الشهود والرضا بالحبيب » .

يقول أبو حمزة الخراساني :

أهـابُك أن أُبـدى إليـك الذى أُخفـى
وسرِّىَ يبـدى مـا يقـولُ لـه طرْفى
نهانى حيـائى منك أن أكتُـم الهوى
وأغْـنَيْـتَنِى بالفهم منك عن الكشفِ
تلطّفتَ فى أمـرى فأبـديَت شـاهدى
إلى غائبـى واللُطفُ يـدركُ باللطـفِ
تـراءيـتَ لى بـالغيـبِ حتـى كـأنما
تُبشّرنـى بـالغيـبِ أنـك فى الكـفٍّ
أراك وبـى مـن هيبْتـى لـك وحشـةٌ
فتؤنسنـى باللُّطف منك وبـالعطفِ
وتُحيـى مُحبـاً أنـت فى الحبّ حتفـه
ومن عجـبٍ كونُ الحياة مـع الحتْفِ
فيا شـوقُ رفْقاً بـالذى أنـت مُشعلٌ
فلـوعتُك الحرّى تجلُّ عـن الوصـفِ
ويـا قلـبُ هـذا مـوعـد لمتيـّمٍ
تفيض دموع العين منـه ، ولا تكفى
ويا نفـسُ هبت مـن رياض أحبتـى
نسائم جادت حُفّلاً مـن شذا العرفِ

تـُراوحنـــا ريـّا الصَّبـــا فى هُبـوبها

فــأنشـــقُ منهـا مــا يُقبّلـــه طـرفى

هـوانــا حجــازىٌ ونجــدٌ هــى المنــى

وإصباحُنا المأمـول يَخفى ولا يُخفى

مُعنـّى ومــا بين الأضـــالــع سـورةٌ

غـوائلهــا تـرتـج فى هــزة الـرجـفِ

ومــاضٍ لما أَسْعــى إليـــه ، كــأننــى

أسيرُ على ظلّ وأسعـــى إلى حتفـــى

فلـــو أبصرتْنــى أعينٌ مستهـــامـــةٌ

لفاضت مـآقيها دمًا ساخـنَ الوكْفِ

وكيف أهابُ الزَّحفَ أو أرهبُ السُّرى

إذا كان مـن أَهواه مولاىَ فى الـزَّحْفِ

أمــولاى صبرنــى على ما أصـــابنــى

فأنــت الذى تكفى وأنت الــذى تُعفى

ولا تجعلـنْ حبــلَ العــذاب مُخلـــدًا

ولا كالــذى عذّبتَ قارون بــالخسْفِ

وهـــا أنـــا أخفــى الـدمـع والسر بيّنٌ

بوجهى، وتأبى المقْلتانِ سوى الذَّرفِ

يُبين لســانـــى عــن فــؤادى وربَّما
أسر لسانــى ما يبــوحُ به طــرفى [1]

---

(١) هذا البيت والأبيات الثلاثـة السابقة له تروى ـ مع اختلاف فى السياق ـــ للشاعر العباس بن الأحنف .

غـــريب الـــدار

للــــبرعى

« إلهى أقلْنــــى عثْــرتــــى ، وتـــولَّنـــى
بعفــوٍ ، فـــإن النـــائبـــات لها عُنــفُ
خلعــــتُ عـــذارى ثـــم جئتـــك عـــامـــدا
بعذرى ، فــإن لم تعفُ عنّى، فمــن يعفو »

« عـاش الإمام عبـد الرحيـم البرعى فى القـرن الخامس الهجـرى ، ويقال إنه أول من توله فى حب الرسول الكريم ، وشعره يدل على صدق العاطفة فى الحب ، مع سهولة ورقة فى التعبير .

والبرعى يمنى الأصــل ، حجَّ عدة مرات ، وتوفى فى الطريـق من مكة إلى المدينة ودفـن بوادى البرعـى ـ وله ديـوان مجموع مطبـوع يضم أشعاره فى الحب الإلهى والمدائح النبوية » .

يقول البرعى :

عسى من خفيِّ اللطف سبحانَهُ لُطفُ
بعطْفة برٍّ ، فالكريم له عطفُ

عسى من لطيف الصُنع نَظرةُ رحمةٍ
إلى من جفاهُ الأهل والصحبُ والإلفُ

عسى فرجٌ يأتى به الله عاجلاً
يُسرُّ به الملهوفُ إذ غمّه اللهفُ

عسى لغريب الدار تدبير رأفةٍ
وبرٌّ من البارى إذا العيش لم يصفُ

عسى نفحةٌ فرديةٌ صمديةٌ
بها تنقضى الحاجات والشمل يلتفُ

فإنىَ والشكوى إلى الله ، كالذى
رمى نفْسه فى لجةٍ موجُها يطفو

فمن محن الأيام قلبى معذّبٌ
أَلَمَّ بروحى قبل حتْفِ الفنَا حتْفُ

وإنى لأرضى ما قضى الله لى ولو
عَبدْتُ على حرفٍ لأزوى بىَ الحرْفُ

ولم أبْن حُسنَ الظنِّ فى سيدى على
شَفا جُرفٍ هارٍ فينهار بى الجرفُ

ولكـــن دعـــوت الله يكشـــفُ كـــربتـــى
فما كـــربـــة إلا ومنـــه لها كشـــفُ
فكـم بُسطـــت كـفّ بســـوء تـريـــدنـى
فقـــال لها الكـــاف ألا غُلـــب الكـــفُ
وكـم هـــم صرفِ الـدهـــر يصرفُ نـــابـه
على ، فجـــاء الغـــوثُ وانصرف الصرفُ
ولم أعتصـــــمْ بـــالله إلا ومـــــد لى
مـــن البِرِّ ظـــلا فى رضـــاه لـــه وكـْفُ
وإنـــى لمستغـــن بفقـــرى وفـــاقتـــى
إليـه ، ومُستقـــوٍ وإن كـان بـــى ضعـْفُ
وفى الغيـــب للعبـــد الضعيـــف لطـــائفٌ
بها جفـّت الأقـــلام وانطـوت الصحـــفُ
فكـــم راح روح الله فى خلقـــــه ، وكـــمْ
غـدا قبـــل أن يـرتـــدَّ للنـــاظـــر الطـرفُ
بقـــدرة مـــن شـــدّ العـرى وبنـــى السما
طـــرائق فـوق الأرض فهـــى لها سقـــفٌ
ومن نصـــب الكرسىّ والعـــرش ، واستوى
على العـرش والأمـلاك مـن حـولـه حفـّوا
ومـــن بســـط الأرضين فهـــى بلطفـــه
لحىِّ بنـــى الـــدنيـــا وميّتهـــم ظـــرْفُ

وألقــى الجبــال الشــمَّ فيهــا رواسيــًا
فليـس لها مــن قبـلِ مـوعـدهــا نسْـفُ
وألبسهــا مـن سنــدس النَّبـتِ بهجــةً
مــن القطـر مـا صِنْـفٌ يشـابهه صِنْـفُ
وسخَّــر مــن نشر السحـاب لــواقحـًا
إذا انتشرت درَّت سحــائبهـا الــوطـفُ
وأنشــأ مــن ألفــافهــا كــلَّ جنــة
بها الأبُّ والــريحانُ والحَب والعصــْفُ
ويعلــم مسرى كــلٍّ ســارٍ وســـارب
ومـا أعلنــوه مـن خطـايـا ومــا أخفـوا
ويـدرى دبيـب النمـل فى الليـل إن سَعـتْ
وإن وقفـت مـا أمكـن السعـى والـوقـفُ
ووزن جبـــال كــم مثـــاقيـــل ذرةٍ
وكيــْل بحـــارٍ لا يغيِّضهـــا نــزْفُ
وكـمْ فى غــريـب الملـك والملكـوت مــن
عجــائب لا يُحصــى لأيسرهــا وصــْفُ
فسبحـــانــه إن هــمَّ وهـــمٌ لــذاتـِه
بكـــف وتكييـــفٍ يُلجِّمـــهُ الكـــفُ
ولم تُحِط الســـتُّ الجهــاتُ بـــذاتـــه
فــأيــن يكـون الأيــْنُ والقَبــْلُ والخلـْفُ

إلهى أقلْنـــى عثـْرتـى وتـــولّنـــى
بعفـــو فــإنَّ النـــائبـاتِ لها عنـْفُ
خلعـْتُ عــذارى ثـًم جئتـكُ عـامـدًا
بعـذرى ، فـإن لم تَعفُ عنـى فمـن يعفـو
وأنــت غيـــاثــى عنـــد كــلِّ ملمـــةٍ
وكهفـى إذا لم لى يبـق بين الــورى كهـف
فكـــم صـــاحـــب رافقتـــه ليكـــون لى
رفيقًا ، فـأضحى وهـو بادى الجفـا خُلفُ
ومـا شئـــت مـن قـومٍ أعـدُّ صـــديقهـم
إذا استنصروا زالـــوا وإن وزنـــوا خفّـــوا
طبــــاع ذئابٍ فى ثيـــــاب جميلـــــةٍ
بصـــائرهـم عُمـــىٌ ، قلـــوبُهمـو غُلـْفُ
تلــــــوحُ عليهـــــم للنفـــــاق دلائلٌ
وبــالحكِّ يبـدو الزيـف والـذَهَـبُ الصّرفُ
فحـُلْ سيـدى مـا عشـــتُ بينـى وبينهـم
بحـوْلـك حتـى يخضـــع الفـرد والألـْفُ
لأنـــك معـــــروفٌ ومنـــك عــــوارف
إذا استُنكـر المعـــروفُ وانقطـع العـُرْفُ
وأثبــت بنـــور العلـم والحلـم منـــك لى
سعـــادة حـــظ مــــا لمثبتهــا حــذْفُ

وأيـّد بحـــرف الكـاف والنــون حُجّتـى
ليسبـــق لى مـــن كـلٍّ صـــالحةٍ حــرفُ
وأكـــرْم لأجلى مــن يلينـــى وأعطنـــا
مـن النـــار أمْنـًا يــوم كُـلٌّ لـــه ضعـفُ
وصـــــلّ على روح الحبيـــب محمـــــدٍ
صـــلاةً عـــلاهـا النــور وانتشر العـَرْفُ

نـــار ليـــلى

للشّهرزورى

نــــارنـــا هـــذه ، تضـــىء لمن يســْـــ
رى بليــــلٍ ، لكنّهـــا لا تنيـــــلُ
هـــذه حـــالُنـــا ، ومـــا وصـــل العلـْـــ
مُ إلينـــــا ، وكـــــُلُّ حـــالٍ تحولُ

« هو عبد الله بن القاسم الشهـرزورى ـ نسبه إلى مدينة شهرزور فى كردستان ، شاعر عالم وأديب فقيه ومحدث بارع حكيم . توفى سنة خمسمائة وإحدى عشرة هجـرية ، وهـو قليل الحظ مـن الشهرة بين الأدباء والمتأدبين وإن كان عظيم القدر بين عشاق المتصوفة فى زمانه .

وهو فى قصيدته هذه ينسج على منـوال غير مألوف عندما يستهلها بـوصـف ابتداء الـرحلـة ، رحلـة البحـث عـن الحقيقة المطلقـة ، عـن معشوقتـه.. ليلاه ، ثـم يصف أشـواق الرحلـة وما لاقـاه من معـاناة ومكـابدة ، وصـولاً إلى النار التـى كـان يظنها ستنيـل ، حيث الظفـر بالوصال ولقاء المحبوب » .

يقول الشهرزورى :

لمعتْ نارهم وقد عسعسَ الليْـ
ـلُ ، وملَّ الحادى ، وحار الدليلُ
فتأملتها وفكرى من البيْـ
ـن عليلٌ ولحْظُ عينى كليلُ
وفؤادى ذاك الفؤادُ المعنَّى
وغرامى ذاكَ الغرامُ الدخيلُ
ثم قَبلتُها وقلتُ لصحْبى
هذه النارُ ليلى فميلوا
فَرموا نحْوهَا لحِاظًا صحيحا
تٍ ، فعادت خواسئًا وهى حُول
ثم مالوا إلى الملام وقالوا
خُلَّبٌ ما رأيْتَ أم تخييلُ
فتجنبتهم ومِلْتُ إليها
والهوى مركبى وشوقى الزميلُ
ومعى صاحبٌ أتى يقتفى الآ
ثارَ والحبُّ شأنهُ التطفيلُ
فَدنونا من الطلولِ ، فَحالتْ
زفراتٌ من دونها وعويلُ
قلتُ : من بالديار ؟ قالت : جريحٌ
وأسير مُكَبَّلٌ ، وقتيلُ

مالـذى جئْتَ تبتغى ؟ قلـت : ضيفٌ
جـاء يبغـى القرى ، فـأيـن النـزُولُ
فـأشارتْ بـالرّحـب دونـك فاعقـرْ
هـا فما عنْدنـا لضيـْف رحيـلُ
مـن أتـانـاألقـى عصـا السيْر عنـه
قلـت : مـن لى بذا ؟ وكيـف السبيـلُ
فحططْنـا إلى منـازل قـوم
صرعتهـم قَبـْلَ المذاق الشَّمـولُ
ومـن القـوم مـن يشيرُ إلى وجـْ
ـد تبقـّى عليـه منـهُ القليـلُ
قلـت : أهـل الهوى سـلامٌ عليكم
لى فـؤادٌ عنكـم بكـم مشغـولُ
لم يـَزلْ حـافـز مـن الشـوق يحدو
بـى إليكـم والحادثـاتُ تحولُ
جئـتُ كـى أصطلى ، فهـل لى إلى نـا
ركمـو هـذه ، الغـداةَ سبيـلُ
فـأجـابـت شـواهـد الحال عنهـم
كـلُّ حـدٍّ مـنْ دونها مفلـولُ
نـارُنـا هـذه ، تضُـىء لمن يسـ
ـرى بليـلٍ ، لكنهـا لا تُنيـلُ
هـذه حـالُنـا ، ومـا وصـل العلـ
ـم إلينـا ، وكـلُّ حـال تحولُ

تــه دلالاً

لابن الفارض

كـــلُّ مـــــن فى حماكَ يهواكَ ، لكـــن
أنـــا وحـــدى بكـــل مـــن فى حماكـــا
يُحشر العـــاشقـــون تحت لـــوائى
وجميـــــع الملاحِ تحْتَ لـــــواكـــا

« هو إمام المحبين وسلطان العاشقين أبـو حفص عمر بن الفارض ولد فى القـاهرة سنة خمسمائة وسـت وسبعين هجرية لأسرة شـامية الأصل تنتسب إلى مـدينة حماة ،ونشأ نشأة دينية فى كنـف والده ابن الفارض الذى كان أحد كبار علماء الدين فى زمانه ، وأتيح له أن يدرس الفقــه والحديـث وأن يتردد على مجالـس العلم ، وأن يـدرس طـريـق الصـوفية متنقــلاً فى سياحته الروحيـة بين وادى المستضـعفين فى جبل المقطم وأوديـة مكة التى قضـــى بها خمسة عشر عـاما عاد بعـدها إلى مصر مفعمًا بالأشواق والوجد والهيام حيـث كانت وفاته سـنة ستمائة واثنتين وثلاثين هـجرية .

وقد اشتهر شعره لامتـلائه بالمعانى الصوفية الرمـزية ، ولقوة ما تميز به من أداء وتعبير ، وعاطفة حارة متوهجة ، وخيال محلق » .

يقول ابن الفارض :

تـــه دلالاً فـــأنــت أهـــلٌ لـــذاكـــا
وتَحكّمْ فـــالحســن قـد أعطـــاكـــا
ولـــك الأمرُ فـــاقـضِ مـــا أنتَ قـــاضٍ
فعلىَّ الجمالُ قـــــــــد ولاَّكـــــــا
وتـــلافى إن كـــــان فيـــه ائتـــلافى
بـــكَ ، عجـــلِّ بــه جُعلـــتُ فــداكـــا
وبما شئـــت فى هـــواكَ اختبرنـــى
فـــاختبـــارى مـــا كان فيـــه رضـــاكـــا
فعلى كـــلِّ حـــالـــةٍ أنـــت منـــى
بـــى أولى ، إذْ لم أكـــنْ لــــولاكـــا
وكفـــانـــى عـــزّاً بحبـــك ذُلِّى
وخضـــوعـــى ، ولست مـــن أكفـــاكـــا
وإذا مـــا إليـــك بـــالـوصـــل عـزَّتْ
نسبتـــى عـــزَّةً وصـــحَّ ولاكـــا
فـــاتهامـــى بالحب حسْبـــى ، وإنـــى
بين قـــومـــى أُعـــدُّ مـــن قَتـْلاكـــا
لـــك فى الحىِّ هـــالـــكٌ بـــك حـــىٌّ
فى سبيـــل الهوى استلـــذَّ الهلاكـــا
عبـــد رقٍّ مـــارقَّ يـــومـــاً لعتـــق
لـــو تخَليـــْتَ عنـــه مـــا خـــلاَّكـــا

بجمالٍ حجبْتــــــهُ ، بِجـــــــلالِ
هــامَ واستعــذَبَ العـذابَ هنــاكـا
وإذا مـا أمـنْـنُ الـرجـا منـه أدنـا
كَ ، فَعنـهُ خـوفُ الحِجى أقصـاكـا
فبـإقـــدام رغبــةٍ حين يغشـا
كَ ، بـإحجـامِ رهْبـةٍ يخشـاكـا
ذاب قلبـــى فـأذَنْ لـــه يتمنـّا
كَ ، وفيـــه بقيـةٌ لـرجـاكـا
أومـــر الغمـْضَ أن يمـُرّ بجفْنـى
فكـأنـّى بــه مُطيعـًا عصـاكـا
فعســى فى المنـام يعرضُ لى الـوهــ
ـمُ ، فيـوُحـى سرًا إلىَّ سُراكـا
وإذا لم تُنعـش بـروح التمنـّى
رمقـى ، واقتضـى فنـائى بقـاكـا
وحَمت سُنــةُ الهوى سِنـةَ الغَمْـ
ـضِ جفـُونـى ، وحرَّمـت لُقْيـاكـا
أَبـْقِ لى مقْلـةً لعلـّىَ يـومـًا
قبـل مـوتـى أرى بها مـن رآكـا
أيـن منّى مـا رمتُ هيْهـاتَ ، بل أيــ
ـنَ لعينـى بـالجفـنِ لَثـْمُ ثـراكـا

فَبشيرى لــو جـاء منـْكَ بعطــفٍ
وو جـودى فى قبضتــى ، قلتُ هــاكـا
قـد كفــى ما أرى دمــا مــن جُفـونٍ
بـك قرْحــى ، فهل جـرى مــا كفاكـا
فــأجـــرِ مــن قــلاكَ فيـك مُعنــىًّ
قبــل أن يعـــرفُ الهوى يهواكــا
هبــْكَ أنَّ الـــلاَّحـــى نهاهُ بِجهــلٍ
عنـْكَ قـُلْ لى عن وصلـه مـنْ نهاكـَا
وإلى عِشْقـــــِكَ الجمالُ دعــــاهُ
فــإلى هجــْره تـُرى مـــن دعـاكـــا
أتـُرى مــَنْ أَفْتـَاكَ بــالصــدِّ عنــىِّ
ولغيرى بــالــودِّ مـــَنْ أفتـــاكـــا
بــانكســارى بـِذلَّتـــى بخضــوعــى
بـــافتقــارى بفــاقتـــى بِغنـــاكـــا
لا تكلنـــى إلى قــــوى جَلــَدٍ خــــا
نَ ، فــإنــى أصبحتُ مـن ضُعفـاكـا
كنـت تجفـو وكـــان لى بعـضُ صبْرٍ
أَحْسـَنَ الله فى اصطبـارى عــَزَاكـا
كـم صــدودًا عساكَ تـرحـمُ شكـوا
ى ، ولــو بــاستماع قـَولى عســاكـا

شنَّع المُرجفون عنك بهجرى
وأشاعوا أنّى سَلوتُ هواكا

ما بأحشائهم عشقْتُ فأسلو
عنك يومًا ، دع يهجروا ، حاشاكا

كيف أسلو ومقلتى كُلما لا
حَ بريقٌ تلفَّتَت لِلقاكا

إن تنَسمتُ تحت ضوءِ لثام
أوتنسمْتُ الريحَ مَنْ أنْباكا

طِبْتُ نفْسًا إذْ لاح صُبحُ ثنايا
كَ لعيْنى ، وفاح طيبُ شذاكا

كلّ من فى حِماكَ يهواكَ ، لكن
أنا وحدى بكلٍّ من فى حماكا

فيك معنىً حَلاكَ فى عيْن عقلى
وبه ناظرى مُعنًّى حِلاكا

فُقْتَ أهل الجمالِ حُسْنًا وحُسْنى
فبهمْ فاقةٌ إلى معْناكا

يُحشر العاشقون تحت لوائى
وجميع الملاحِ تَحْتَ لواكا

ما ثنانى عنْكَ الضَّنى فبماذا
يا مليح الدَّلالِ عنّى ثناكا

لــك قــربٌ منّــى ببعــدك عنِّــى
وحنــو وجــدتــهُ فى جَفــاكــا
علّــم الشــوق مقلتــى سهــر اللَّيْــ
ـلِ ، فصــارتْ من غير نــومٍ تــراكــا
حبــذّا ليلـــةٌ بها صــِدْتُ أسرا
كَ ، وكـــان السُهــادُ لى أشراكـــا
نــاب بــدر التمام طيــْفَ مُحيــًّا
كَ لِطــرْفى ، بيقظتــى إذ حكــاكــا
فتراءيــــــت فى ســــــواكَ لعينٍ
بــك قــرَّتْ ومــا رأيــت ســواكــا
وكـــذاك الخليـــلُ قلّـــب قبلى
طــرْفــه حين راقــبَ الأفــلاكــا
فــالــديــاجــى لنــا بــك الآن غُــرٌّ
حيــث أهــديــتَ لى هُدًى مــن ثنــاكــا
ومتــى غبــْتَ ظــاهــرًا عــن عِيــانــى
أُلفــِه نحــوَ بــاطنــى ألفــاكــا
أهـــل بــْدرٍ ركــبٌ سريــْتَ بليــْلٍ
فيــه بــل ســار فى نهارٍ ضيــاكــا
واقتباسُ الأنــوار من ظــاهرى غيــْ
ـــر عجيبٍ وبــاطنــى مــأواكــا

يعْبَق المسْكُ حيثما ذُكِرَ اسْمى
منذ ناديْتَنى أقَبِّلُ فاكا
ويضوع العبير فى كلِّ نادٍ
وهو ذكرٌ مُعبرٌ عن شذاكا
قال لى حسنُ كلِّ شىءٍ تجلَّى
بى تملى فقلتُ قصدى وراكا
لى حبيبٌ أراكَ فيه معنًّى
غُرَّ غيرى وفيه مَعْنىً أراكا
إن تولَّى على النفوس تولَّى
أو تجلَّى يستعبدُ النُسَّاكا
فيه عوِّضتُ عن هُداى ضلالاً
ورشادى غيًّا وسترى انهتاكا
وحَّد القلبُ حُبَّه فالتفاتى
لك شِرْكٌ ولا أرى الإشراكا
يا أخا العذْلِ فى من الحسْن مثْلى
هام وجْدًا به عدِمْتُ أخاكا
لو رأيت الذى سبانى فيه
من جمالٍ ولن تراهُ سباكا
ومتى لاح لى اغتفرْتُ سُهادى
ولعينىَّ قلتُ هذا بِذاكا

مريضة الأجفان

لابن عربي

بأبي طفلةٌ لعوبٌ تَهادى
من بناتِ الخدور بين الغواني
طلعت في العِيان شمسا ، فلما
أفلت أشرقت بأفق جناني

هو محيي الدين بن عربي ، الحاتمي الطائي الأندلسي . ولد بمرسية إحدى بلاد الأندلس سنة خمسمائة وستين هجرية ، وانتقل إلى إشبيلية في الثامنة من عمره ، فقرأ بها العلوم على مشاهير زمانه ثم سافر إلى مصر ودمشق وبغداد ، وجاور في مكة ، وأقام في بلاد الروم طلبًا للعلم والسياسة ، وتوفي بالشام عن ستة وسبعين عاما، ودفن في مسجد يحمل اسمه في سفح جبل قاسيون بعد حياة حافلة جلبت عليه الكثير من الأنصار والأعداء .

وقد ترك ابن عربي مؤلفات كثيرة أشهرها « الفتوحات المكية » الذي يعدُّ واحدًا من أمهات كتب التصوف الإسلامية ، وديوان شعره «ترجمان الأشواق » الذي يمتلئ بقصائد في الغزل يرمز بها إلى المعاني الروحية والدلالات الصوفية .

يقول ابن عربى :

مـرضـى مـن مــريضــةِ الأجفـانِ
علِّلانــى بـذكــْرِهــا ، علـّلانــى
هفـت الـوُرْق بـالريـاض ونـاحـتْ
شجـْوُ هـذا الحمامِ ممـا شجـانــى
بـــأبــى طفلـــةٌ لَعـــوب تهادَى
مــن بنــات الخدورِ بين الغــوانـــى
طلعــتْ فى العيــانِ شمســًا ، فلما
أفلــتْ أشرقـتْ بـــأفــقِ جَنـانـــى
يـــا طلـــولاً بـــرامــةٍ دارســـاتٍ
كـــم رأتْ مـن كـــواعـبٍ وحســـانِ
بـــأبـــى ثـم بـــى غـــزالٌ ربيـــبٌ
يـــرتعـــى بين أضلعـــى فى أمـــانِ
مـــا عليـه مـن نـــارهـــا فهـى نـور
هكـــذا النـــورُ مُخمـــدُ النيران
يـــا خليلىَّ عـــرجـــا بعيـــانـــى
لأرى رســْم دارهـــا بعيـــانـــيِ
فـــإذا مـــا بلغتما الـــدار حُطـــا
وبها صـــاحبـــىَّ ، فَلتبكيـــانـــى

وقفـــا بـــى على الطلـــولِ قليـــلاً
نتبـاكـى ، بـل أَبـْكِ ممـا دهـانـى
الهوى راشقـــى بغير سهـــامٍ
الهوى قـــاتلى بغير سنـــانِ
عـــرّفـــانـــى إذا بكيـــتُ لـــديْها
تُسـعـدانـى على البُكـــا تُسعـدانـى
واذكـــرا لى حـديـــث هنـدٍ ولبنـــى
وسليْمـــى وزينـــبٍ وعِنـــانِ
ثـــم زيـــدا مـــن حـــاجـــر وزرود
خبرًا عـــن مـــراتـــع الغـــزلان
وانـــدبـانـــى بشعـرِ قيـسٍ وليلى
وبمـــىٍّ ، والمبتلَى غيـــلانِ
طـــال شـــوقـــى لطفلـةٍ ذات نثـــرٍ
ونظـــامٍ ومنـــبرٍ وبَيـــانِ
مـــن بنـاتِ الملـــوك مـــنْ دار فُـــرسٍ
مـــن أجـلِّ البـــلاد مـــن أصْبهـــانِ
هـــى بنـــتُ العـراق بنـتُ إمـــامـــى
وأنـا ضـــدّها سليـــلُ يمـــانى
هـــل رأيتـم يـــا ســـادتـى أو سمعتـــم
أن ضـــدَّيْـن قـــطُّ يجتمعـــانِ

لــو تــرانــا بــرامــةٍ نتعــاطــى

أكـــؤُســـًا للهـــوى بغير بَنــــانِ

والهوى بيننــاَ يســـوقُ حــديثـاً

طيبــا مطـــربـــا بغير لســــانِ

لــرأيْتــم مــا يــذهــبُ العقـــلُ فيــه

يمـــــنٌ والعـــــراقُ معتنقـــــانِ

كـــذب الشــاعــر الــذى قـــال قبلى

وبــأحجــارِ عقْلــه قـــد رمــانـــى :

« أيها المنكـــح الثـــريـــاً سُهيـــْلاً

عَمـــــْرَكَ الله كيـــــف يلتقيــــان

هـــى شــاميــةٌ إذا مـــا استهلــّت

وسُـهيـــلٌ إذا استهـــلَّ يمانـــى[1] »

(١) هذان البيتان منسوبان للشاعر عمر بن أبى ربيعة .

ربّة السّتر

للإمام الصرصرى

سيرى فأنوار أقمار المحامل إن
حار الأدلةُ فى البيْداء تهديكِ
فَتحتِ بالرشدِ عن عينىَّ بعد عمىً
وأسمعَ السرَّ من قلبى مناديكِ

« هو الإمام العالم جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصرىّ العراقى ، كان ضريرًا ، ولكنه كان تقيا ورعا وأديبًا بارعًا وله ديوان شعرى كبير أكثره مدائح فى الرسول الكريم ، مات على أيدى التتار ـ عند سقوط بغداد ـ سنة ستمائة وست وخمسين هجرية » .

يقول الإمام الصرصرى :

يارَبّةَ الستر لا انجابت غواديك
عن جوِّ مغْناكِ أو يَخضر واديك
وأنت يا عَذَباتِ البانِ ، لا برحتْ
تهيجُ أشواقنا ألحانُ شاديكِ
وماسَ من كلِّ غُصنٍ منك من طربٍ
عِطفٌ وتهْتِ دلالاً فى تهاديكِ
ويامياه الحمى لازلْتِ طيبةً
يُروى بشربِ الزّلالِ العذب صاديكِ
ويا نسيم صبا نجدٍ لقد عرفَت
روحى بمسراكِ وَهْناً عرفَ مهديكِ
ويالياليناً لله عيْشُ هوًى
مع البدور تقضّىَّ فى دآديكِ
ويا فوارط أيامى بخيْف منى
لو كان يُفدى زمانٌ كنتُ أفديكِ
ويا رسائلَ وجدٍ لا أبوحُ بها
إلى الأحبةِ عندى من يؤدّيكِ
أُخفيك عن عُذَّلى صونًا وتكرمةً
بل المدامعُ والأنفاس تُبديكِ

ويـا ركاب الحجـازِ القُودَ ، لانقبـتْ
مـن السَّرى أبـدًا أخفـافُ أيـديـكِ
ولا عـدلْتِ عـن النهـجِ القويـمِ ، ولا
مـالـت إلى غير أحبـابـى هـواديـكِ
ونلْـتِ ما شئـتِ مـن وردٍ ومن كـلأٍ
ولا نبـا السمعُ عـن تغريـد حاديـكِ
كمْ ذا التَّمادى،ذرى التَّعليلِ وابتدرى
إلى الحمـى ، فَعنـائى فى تماديـكِ
سيرى فـأنـوار أقمار المحـامـل إن
حـار الأدلـّةُ فى البيـداء تهديـكِ
ويـا قبـابَ حمى سَلْعٍ حـويـْت على
رقـىٍّ بما أسلفـت عنـدى أيـاديـكِ
فَتحْتِ بالـرشدِ عن عينىَّ بعـد عمىً
وأسمـعَ السر مـن قلبـى مُنـاديـكِ
حـقٌّ علىَّ أُوالى مـن بـه اعتلقـتْ
أسبـابـهُ وأُعـادى مـن يُعـاديـكِ
إنـى وإن تكُ أضحـت عنـك نازحـةً
دارى لأرعـى بظَهـْرِ الغيـب واديـك
لازال سُكـانـكِ القُطـَّانُ فى دعـةٍ
وفـاز رائحـكِ السـَّارى وغـاديـكِ

وأنت لا تجزعــى يا نفــسُ من بــدعٍ
مضلـــةٍ وضيـــاءُ الله هـــاديـــكِ
أجـــارَكِ الله لـــولا درعُ سُنتـــهِ
لكــان سهــمُ الهوى الفتّاك يُرديـكِ

وارحمتا للعاشقين

للسهروردى

« لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى
كتمانهم ، فنما الغرامُ ، فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
لما دروا أن السماح رباحُ»

« هو شهاب الدين عمر السهروردى ، ولد فى سهرورد وقرأ كتب الدين والحكمة وأقام فى مراغة وبغداد وحلب ، حيث كان مقتله بأمر السلطان صلاح الدين بعد أن نسب البعض إليه فساد المعتقد ، ولتوهم صلاح الدين أن السهروردى يفتن ابنه بالكفر والخروج على الدين ـ وكان مقتله بقلعة حلب سنة ستمائة وخمس وستين هجرية ـ مع أنه كان من كبار المتصوفة فى زمانه ومن أفقه علماء عصره بأمور الدين والفلسفة والمنطق والحكمة ، ويسمى مذهبه الذى عرف به «حكمة الإشراق » .

ويروون أنه قال وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

قل لأصحابٍ رأونى ميتا
فبكوْنى إذ رأَوْنى حَزنا
لا تظنونى بأنى ميتٌ
ليس ذا الميّت والله أنا
أنا عصفورٌ وهذا قَفصى
طرت عنه فتحلّى رَهَنا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها
فترون الحقَّ حقّاً بيِّنا
لا ترعكُم سَكْرة الموت فما
هى إلا بانتقالٍ من هنا

يقول السهروردى :

أبـــــدًا تحن إليكـــــم الأرواحُ
ووصـــالكـــم ريْحانُها والـــرَّاحُ
وقلـوبُ أهـلِ ودادكـم تشتـاقكـم
وإلى بهاء جمالكـــم تــرتـــاحُ [1]
وارحمتـــا للعـــاشقين تحمَّلـــوا
ثقـــل المحبـــة والهوى فضـّـاحُ
أهـل الهوى قسمان : قســم منهمـو
كتمـوا ، وقســمٌ بـالمحبـة بـاحـوا
فـالبائحـون بِسرهم شربـوا الهوى
صِرْفـًا فهـزهموا الغـرام فبـاحـوا
والكـاتمون لسرهـــم شربـوا الهوى
ممـــزوجـــةً فَحمتْهمـــو الأقـــداحُ
بـالسر إن بـاحـوا تبـاحُ دمـاؤهـم
وكـــذا دمـــاء البـــائحين تُبـــاحُ
وإذا همو كتمـــوا تحدَّث عنهمـــو
عنـــد الـــوشـاة المدمـــعُ السَّفـــاحُ

---

(١) فى رواية أخرى للبيت : وإلى لذيذ لقائكم ترتاح .

وبـدت شـواهــدُللسَّقـام عليهمــو
فيهـــا لمشكــلِ أمـرهـــم إيضـــاحُ
خُفض الجَنـاحُ لكم ، وليـس عليكمو
للصـبِّ فى خفْضِ الجنـــاح جُنـاحُ
فــإلى لقـــاكـم نفســـهُ مـرتـــاحـةٌ
وإلى رضـــاكــــم طــرفــُـه طماحُ
عودوا لنور الوَصل من غَسقِ الدُّجى
فـالهجـر ليـلٌ والــوصـــال صَبـاحُ
صـافـاهمو فصفـوا لـه ، فقلـوبهم
فى نـــورهـــا المشكـــاةُ والمصبـــاحُ
وتمتعـوا فــالـوقت طـاب بقـربكـم
راق الشراب وراقـــــت الأقــــداحُ
يـا صـاح ليس على المحـب مـلامـةٌ
إن لاح فى أفـــق الصبـــاحِ صبــاحُ
لا ذنـــب للعشـاق إن غلـــب الهوى
كتمانهم ، فنما الغــرامُ ، فبـاحــوا
سمحـوا بـأنفسهم ومـا بخلـوا بها
لمَّا دروا أن السَّماحَ ربـــــــــــاحُ
ودعــاهمو داعــى الحقـــائق دعــوةً
فَغـــدوْا بها مستــأنسين وراحــوا

ركبوا على سفُن الوفا ، ودموعهم
بحرٌ ، وشدّة شوقهم ملاَّحُ
والله ما طلبوا الوقوف ببابهِ
حتى دعوا ، وأتاهمو المفتاحُ
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم
أبدًا ، فكلُّ زمانهم أفراحُ
حضروا وقد غابت شواهدُ ذاتهم
فتهتكوا لما رأوهُ وصاحوا
أفناهمو عنهم وقد كُشفت لهم
حُجب البَقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثْلهم
إنَّ التشُّبه بالكرامِ فلَاحُ

ويضيف الصوفية إلى قصيدة السهروردى أبياتًا أخرى كثيرة ، من بينها مقطوعةٌ نظمت على غرار القصيدة الأصلية ، وحملت طابعها فى التعبير وطريقتها فى بناء الصور الشعرية والدوران حول قاموسها المختار من الكلمات والإشارات :

أيامنا بلقائكم أفراحُ
وجميع أيام المِلاحِ ملاحُ
قل للمحب إذا تهتَّك فى الهوى
إن التهتُّك فى الغرام مُباحُ

واخلَـــعْ عِـذَارك لا تُبـــالِ بعـــاذلٍ
واطـــربْ وغـنِّ فما عليـــك جُنـــاح
أهـــل المحبـــة حين طـــاب شرابهم
بـــاعـوا النفوس لِحبهـــم وارتـــاحـوا
شربوا كؤوس الحب فى حـــان الصَّفا
فتمايلــــــت سكــــــرا بها الأرواحُ
بـــالانكســـار تحمّلـــوا فى حبـــّه
فبـــدا عليهـــم مـــن رضـــاهُ سَماحُ
خلع الحبيـــبُ عليهمو خلـــعَ الرِّضـــا
وأنـــالهم مـــن فضلـــه الفتـــَّاحُ
مـــلأ الحبيـــب قلـــوبهم مـــن نـــوره
فشـــذاهمو مـــن عطـــره فـــواحُ
تحيى الحبيـــب بذكـــرهم وبنـــورهم
وتـــزول عنـــد لقـــاهمو الأتـــراح
كـــلُ القلـــوب لهم تحن تشـــّوقـــًا
وتُحبّهـــم ، وبحبِّهـــم تـــرتـــاحُ
فتشبهـــوا إن لم تكـــونـــوا مثلهـــم
إن التشبـــُّه بـــالكـــرام فَـــلاحُ

إلهى يا سميع

لأحمد البدوى

« إلهى ثـوب جسْمىَ دنَّستْهُ
ذنوبٌ حِملُها أبدًا ثقيلُ
إلهى جد بعفوك لى فإنى
على الأبواب منكسر ذليلُ »

« هو أبو العباس أحمد البدوى القرشى ، كان مولده بمدينة فاس بالمغرب ، هاجر مع والده وأهله إلى مكة حيث تعلم القرآن والعلوم الشرعية ، ثم حببت إليه الخلوة والوحدة فاعتزل الناس وظهرت عليه دلائل البركة والولاية ، ثم هاجر إلى العراق حيث لقى من شيوخها وعلمائها الترحيب ، ثم جاء إلى مصر فى عصر الظاهر بيبرس الذى استقبله أروع استقبال بعد أن طبقت شهرته الآفاق لعلمه وصلاحه وتقواه ونزل فى مدينة طنطا حيث كانت وفاته سنة ستمائة وخمس وسبعين هجرية زاهدًا متعففًا ورعًا ، وفقيهًا من فقهاء المذهب الشافعى وأعلامه » .

يقول أحمد البدوى :

إلهى أنت للإحسان أهلٌ
ومنك الجود والفضل الجزيلُ
إلهى بات قلبى فى هموم
وحالى لا يُسرُّ به خليلُ
إلهى تب وجُد وارحم عُبيْدًا
من الأوزار مدمعهُ يسيلُ
إلهى ثوب جسْمىَ دنستهُ
ذنوبٌ حملها أبدًا ثقيلُ
إلهى جُد بعفوك لى فإنى
على الأبواب منكسرٌ ذليلُ
إلهى حُفّنى باللطف يا منْ
له الغفرانُ والفيضُ الجزيلُ
إلهى خاننى جَلَدى وصبرى
وجاء الشيبُ واقترب الرحيلُ
إلهى داونى بدواء عفوٍ
به يشفى فؤادى والغليلُ
إلهى ذاب قلبى من ذنوبى
ومن فعْلِ القبيح أنا القتيلُ

إلهى رَدِّنــــى بـــرداءِ أنســـى
وألبسْنــِى المهــابـــةَ يــا جليــلُ
إلهى زحـــزحِ الأســـواء عنـــى
وكـــنْ لى نـــاصرًا نِعـــْمَ الكفيـــلُ
إلهى سيـدى ، سنـــدى وجــاهـــى
فمالى غير عفـــــوكَ لى مقيـــــلُ
إلهى شتَّتـــتْ جيـــْش اصطبـــارى
همومٌ شرحُهـــا أبـــدًا يطـــولُ
إلهى صرتُ مـــن وجــدى أُنـــادى
أنــا العاصــى المســىء ، أنـا الذليـلُ
إلهى ضـــاع عمـــرى فى غـــرور
وفى لهْوٍ وفى لعـــــب يطـــــولُ
إلهى طــــالما أنعمـــْتَ منـــًّا
بجـــودٍ منـــك فضـــْلاً يستطيـــلُ
إلهى ظـــاهــرًا أدعـــوك ربـــِّى
كـــذلــك بـاطنـــًا أنـــت الجليـــلُ
إلهى عـــافنـــى مـــن كـــُلِّ داءٍ
بجـــاهِ مُحمـــدٍ نعـــْم الخليـــلُ
إلهى غـــافـــر الــــزلّات يـــا مـــنْ
تعـــالى ، مـــالـــه أبـــدا مثيـــلُ

إلهى فاز من ناداكَ ربِّى
أتاه الخيرُ حقًا والقبولُ
إلهى قلْتَ ادعونى أَجِبْكُم
فهاك العبدُ يدعو يا وكيلُ
إلهى كيف حالى يوم حَشْر
إذا ما ضاق بالعاصى مقيلُ
إلهى لا إله سواكَ ربّى
تعالى ، لاتُمثلهُ العقولُ
إلهى مسنى ضرٌّ فأضحي
به جسمى يُبلبلهُ النحول
إلهى نَجنى من كلّ كرب
ويسّر لى أمورى يا كفيلُ
إلهى هذه الأوقاتُ تمضى
بأعمار لنا ، وبها تزولُ
إلهى والنى خيْرًا ، وأحسنْ
ختامى عندما يأتى الرسولُ
إلهى يا سميعُ أجبْ دعائى
بطه من تسيرُ له الحمُولُ
فصلِّ عليه ربِّى كُل وقتٍ
صلاة لا تحولُ ولا تزولُ
وآلٍ والصّحاب ذوى المعالى
وفى طى الكلامِ هُمو الفحُولُ

سقاني محبوبي

لإبراهيم الدسوقي

« شهدتُ وشاهدْنا وطابت نفوسُنا
وقد لذَّ لي ذُلِّي إليه وخشيتي
أحنُّ على ذلٍّ وأهوى على هدى
وأسرى على علمٍ لأنوار طلْعةِ »

« هو إبراهيم بن أبي المجد بن قريش زين العابدين ، ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ولد سنة ستمائة وثلاث هجرية ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي ثم اقتفى آثار السادة الصوفية وصار من أقطابهم ، ومازالت طريقه عامرة بالصالحين يقتفون آثاره في مجاهدة النفس وصدق التودد إلى الله وذكره وحسن عبادته ، توفي سنة ستمائة وست وسبعين هجرية عن ثلاثة وأربعين عاما ومسجده بمدينة دسوق عامر بزواره حتى اليوم » .

يقول إبراهيم الدسوقى :

سقانىَ محبوبى بكأسِ المحبةِ
فتهْتُ عن العشاقِ سكْرًا بِخلْوتى
ولاح لنا نور الجلالةِ لو أضا
لصُم الجبالِ الراسيات لدُكّتِ
وكنت أنا السّاقى لمن كان حاضرًا
أطوفُ عليهم كَرَّةً بعد كرةٍ
ونادمنى سرًا بِسرٍّ وحكمةٍ
وأن رسول الله شيْخى وقدوتى
وعاهدنى عهدًا حفظتُ لعهدهِ
وعشتُ وثيقًا صادقًا بمحبتى
وحكّمنى فى سائر الأرض كُلها
وفى الجنِّ والأشباحِ والمرديّةِ
وفى أرض صين الصين والشرق كُلِّها
لأقصى بلاد الله صحَّت ولايتى
أنا الحرفُ لا أُقرا لكلِّ مناظرِ
وكلُّ الورى من أمر ربِّى رعيَّتى
وكم عالمٍ قد جاءنَا وهو منكرٌ
فصار بفضل الله من أهلِ خرقتى

ومـاقلـتُ هـذا القـول فخْـرًا وإنما
أتى الإذن كـى لا يجهلون طـريقتى
غنيـت عـن الـدنيـا بفيـضِ عطـائه
وأىُّ عطـايـاهـم يـدانـى عطيّتـى ؟
وصرتُ على بُعـد المسافـاتِ واصـلاً
لأدنـى دُنـوٌّ فى ارتفـاعـى لغـايتـىِ
فوجـه الحبيب الحقِّ مشرقُ وجهتـى
ونـورُ الحبيبُ الحقِّ سـاطع قبلتـى
وفى القلـب أشـواقٌ يترجـم فيضُـهـا
عن الألـقِ السامـىِ إلى قُدْسِ حضْرةِ
شـهدت وشاهـدنا ، وطابت نفـوسنا
وقـد لـذّ لى ذلّ إليـه وخشيتـى
أحـنُّ على ذلِّ ، وأهـوى على هـدى
وأسرى على علـم لأنـوارِ طلعـةِ
رضيـتُ بـه حتى دخلـت ريـاضـه
فـأنعـم بها من روضـة أىِّ روضـة
ومـا لـذة العشـاقِ إلا يقينهـُم
بشمـلِ جميـعٍ بعـد طـول تشتـتِ
وأغسلُ قلبـى من سـواك ، ولم أجد
لنفسـى إلا نـورذاتـك بغْيتـى
تعـاليتَ بـالعطْفِ الكـريـم ، رعايـةً
فَبـاركْـتَ زلاتـى وأمَّنْـتَ روعتـى

فطـــرة النفـــس

لأبى العباس المرسى

« والنفــسُ بين نــزولٍ فى عـــوالمهــا
كـــآدمٍ ولـــــه حــــواءُ فى قـــَرنِ
والـــروحُ بين تــرقٍّ فى معـــارجهــــا
وهـــى الموافــقُ للتعــرِيـف والمنــنِ »

« هو الإمــام العارف بالله شهاب الــدين أبو العباس أحمد بــن عمر الــخزرجى الأنصــارى المرسى البلنسى ، ولد فى مــرسية من مقــاطعة بلنسية بــالأندلــس سنة ستمائة وست عشرة هجــرية ، ونســب إليها فسمى المرســى ، وفد مع شيخــه أبى الحسن الشــاذلى إلى مصر سنة ستمائة واثنتين وأربعين هـجرية وأقاما بالاسكندرية وأخذ أبو العباس يلقــى الــدروس ويعلم مبــادئ السلــوك وتطبيــب النفوس فى جــامــع العطارين ، وذاعت شـهــرته ـ بعد موت شيخه الشــاذلى ـ وتلقى العلم على يديه وصاحبه كثير من علماء عصره كــالبوصيرى وياقوت العرش والسكندرى وابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام والحافظ المنذرى ـ وتوفى سنة ستمائة وخمس وثمانين هـجرية » .

يقول أبو العباس المرسى :

إن كنت سائلنا عن خالصِ المننِ
وعن تآلف ذاتِ النفسِ بالبدنِ
وعن تشبثها بالحظِّ مذ ألفت
أدرانَها فغَدَتْ تشكو من العَطنِ
وعن بواعثها بالطبع مائلةً
تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجنِ
وعن حقيقتها فى أصل معدِنها
لا ينثنى وصفُها منها إلى وثنِ
وعن تنزلها فى حكمها ولها
علمٌ يفرقها فى القُبح والحسَنِ
فاسمع هُديتَ علومًا عز سالكُها
على البيانِ ولا يغررك ذو لَسنِ
قصدًا إلى الحقِّ لا تخفى شواهدُها
قامت حقائقها بالأصل والفننِ
يا سائلى عن علومٍ ليس يُدركها
ذو فكرةٍ بفهومٍ لا ولا فِطنِ
لكن بنور علىٍّ جامعٍ خمدَت
له العقولُ وكلُّ الخلقِ فى وَسَنِ

خُذْها إليك بحق لستَ جاهلةُ
والأمر مُطَلَعٌ والحقُّ قيدني
على الحقيقة خُذْ علم الأمور ولا
تحجبك صورتُها في عَالمِ الوطن
ففطرةُ النفسِ سرٌّ لا يُحيطُ به
عقل تقيد بالأوهامِ والدرنِ
لكنها برزتْ بالحكم قَائمةً
حتى تألفَها السكانُ بالسَّكنِ
وكيْ يقال عبيدٌ قائمون بما
ألقى من الأمر قبل الخَلْق والمحن
والنفس بين نزولٍ في عوالمها
كآدم وله حواءُ في قَرنِ
والروح بين ترقٍّ في معارجها
وهي الموافقُ للتعريفِ والمننِ
من الحجابِ دنت أنوارُها فَبدتْ
نورًا تنزل بين الماء والدِّمنِ
مثالها في العُلا مرآةُ معدِنها
ألطافُها خِفْية كالسِّر في العلنِ
زيتونةٌ زيتُها نورٌ لصاحبها
قامتْ حقائقُها بالأصلِ والقُننِ

ونــــار دعـــوتها مــــاءٌ لشـــاربِها

مُــدَّت هــدايُتهـــا فى الكَــونِ والكُبـُنِ

والكـــلُّ أنــت بمعنـــىً لاخفــاء بـــه

والنـــور يحجبــهُ كــاَلماءِ فى اللَّبـــنِ

والعبــدُ محتجـبٌ فى عـــزِّ مــالكـــه

دقــت معــارفــُه فى الدهــر والــزمــنِ

ظهرتَ لكل الكون

لابن عطاء الله السكندرى

« ظهرت لكلّ الكون ، فالكونُ مظهرٌ
وفيه له أيضا كما جاءت الصحفُ
فأيُّ فؤادٍ عن ودادك ينثني
وأية عينٍ بعد قُربك لن تغفو »

« هو تاج الدين أبو العباس أحمد بن عطاء الله من أهل العلم فى التفسير والحديث والنحو والفقه والأصول ، صحب أبا العباس المرسى وأخذ عنه ثم استوطن القاهرة وكان له كرسى فى الأزهر يجلس عليه ليشرح علوم القوم وآثار السلف ، توفى بالمدرسة المنصورية فى القاهرة سنة سبعمائة وتسع هجرية ، ومن أشهر آثاره مجموعة الحكم التى نظمها والتى تفيض بالرمزيات وتهيبها الشراح لأنها فى رأيهم تشتمل على الأسرار المصونة والجواهر المكنونة ، بالإضافة إلى آثاره الشعرية التى تدل على موهبة أصيلة وبيان محكم » .

يقول ابن عطاء الله السكندرى :

وكلىَ محتــاجٌ ، وأنــت لــك الغنــى
ومثلى من يُخْطــى ، ومثلك مــن يعفُو
وأنــت الــذى أبــدى الــوداد تكـرمًا
ومثلُك مــن يرعى ، ومثلى مــن يجفو
وما طــاب عيش لم تكن فيــه واصلاً
ولم يصْفُ ، لا والله ، أنّــى له يصـفــو
عــزمــتُ على أن أتــرك الكــون كُلــه
وأقفو سبيلَ الحبِّ ، والمُجْتبــى يقفُو
شـهـود كمـو يجلـو الحجـاب لأنـه
إذا حقّق التحقيق صــار هو الكشفُ
ومــا أحســنَ الأحبابَ فى كُلِّ حـالـة
فـــلله مــا يُبــدوا ولله مــا يخفـــوا
وإن الأولى لم يشـهـــدوك بمشـهـــدِ
قلـوبُهم عــن نيـْلِ سر الهوى غلـفُ
وأنــت الــذى أظهرتَ ثــم ظهـرْت فى
جميــع المبــادىِ مثلما شـهـدَ العـَرف
ظهرْت لكـلِّ الكون، فالكـون مُظهرٌ
وفيه لــه أيضًا كما جـاءتِ الصُّحفُ
فـــأىّ فـؤادٍ عــن فـؤادك ينثنــى
وأيــةُ عيْنٍ بعــد قـربـك لــن تغفــو

وأيــة نفْسٍ لم يُملهــا هــواكمــو
على حُبّكم طُرًّا ، نفـوسُ الورى وقفُ

ويقول ابـن عطاء الله السكندرى فى وصـف الطريـق وشرح أحوال سالكيه والنصح لمن يريد رشاد الهداية :

أيا صاحِ هذا الرّكـبُ قد سار مُسرعًا
ونحنُ قعـودٌ ، ما الـذى أنت صـانعُ
أترْضـى بأن تبقـى المُخلَّف بعـدهم
صريـع الأمـانـى ، والغـرام ينـازع
وهـذا لسـان الكون ينطـق جهـرةً
بـأنَّ جميـع الكـائنـاتِ قـواطـعُ
وأنْ لا يرى وجـه السبيلِ سـوى امرى
رمى بـالسوى لم تختـدعْهُ المطـامعُ
ومـن أبصر الأشيـاء والحقُّ قبْلهـا
فغيّـب مصنوعًـا بمـن هـو صانـعُ
بـوادهُ أنـوارٍ لمن كـان ذاهبـًا
وتحقيـق أسرارٍ لمن هـو راجـعُ
فقـم وانظـر الأكوانَ والنـورُ عمّهـا
ففجـرُ التّدانـى نحْوكَ اليـومَ طالـعُ
وكـنْ عبْدَهُ أَلْـقِ القيـاد لحكمـه
وإيـاك تـدبيرًا فما هـو نـافـعُ

أتحكـــم تـــدبيرًا وغيرُك حـــاكـــمٌ
أأنـــت لأحكـــامِ الإلـــه تُنـــازعُ ؟
فمحــــو إرادات وكـــلُّ مشيئـــةٍ
هو الغَرضُ الأقصى فهل أنت سامعُ
كـــذلـــك ســـار الأولـــون فـــأدركـــوا
على إثـــرهـــم فَلْيَسر مـــن هـــو تـــابـــعُ
على نفْســـهِ فلْيَبـْكِ من كـــان طَـــالبـًا
ومـــا نُلســـتْ ممـــن يُحبُّ لـــوامـــعُ
على نفْســـهِ فليْبـــكِ من كـــان بـــاكيـًا
أيـــذهـبُ وقـــتٌ وهـــو بـــاللهو ضـــائعٌ

سُكْر المحبّة

لابن أرقم النميرى الأندلسى

« فما بـــالهم سُكــر المحبـــةِ أنكـــروا
ولا شربـــوا مــن خمرِ وجـــدانها صرفـــا
يـــريـــدون إدراكَ المعـــانـــى حقيقـــةً
وهــل يجدُ التحْقيـق مــن لم يُجدْ وصفـًا »

« هو أبــو محمــد عبـد الله بن عــبد العظـيم بـن أرقـم النميـرى الأندلسى من أهل وادى آش ، يكنى أبا عـامر ، يقول عنه لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة فى أخبار غرناطة (الجزء الثالث) :

« كان أحد شيـوخ بلدى وطلبته ، مشاركًا فى فنـون من فقه وأدب وعربيـة وهى أغلب الفنون عليـه ، وكان مطرح السّمت ، مخشـوشن الـزىّ، قليل المبـالاة بنفسه ، مختصرًا فى كـافـة شئونـه ، وكان بيتـه معمـورًا بالعلماء أولى الأصـالـة والتعين ، وقـد تصدّر ببلـده للفُتيـا والتدريـس والاستماع ، وكانت وفـاته ببلـده سنة أربعين وسبعمائة هجرية » .

يقول ابن أرقم النميرى الأندلسى :

تعـــالــوا نُعـــاطيهـــا مُقـــدّســـةً صِرفـــا
فنــرشفُهـــا فى بســْـط روض الهدى رشْفــا

أنـــار بها الأكـــوان نــــورٌ فـــأشرقـــت
ومـــن قَبـــلِ مـــوجـــوداتها وُجـــدت لُطْفــا

شربنـــا بـــأكـــوابِ الصفـــاء صفـاءَهـــا
فللـــهِ مـــا أحْلى هـــواهـــا ومـــا أصْفـــى

وغبْنـــا عن الإحســـاسِ من طيـــبِ سُكْرهـــا
فــلاحَ لنـــا فى الكـــون مـــا لم يكـــنْ يخْفـــى

ولمَّا تجلَّى الحســـْـنُ فى حُجـــْبِ قـــُدْســـهِ
حُجبنـــا فلـــم نُبصر حِجـابـــًا ولا سُجفـــا

ورُحنـــا بـــروض الأُنـــسِ نجنـــى ثماره
ونقطـــف بـــالإخـــلاص أزهـــارهـــا قطْفـــا

وبحنـــا بِسرِّ الحب فى مجلـــِـس الهوى
ولم نخـــْـشَ إذ بُحْنـــا بِسرِّ الهوى حتْفـــا

ونحـــن أنـــاس ليـــس ينكـــرُ أمـــرُنـــا
عـــرفْنـــا وعـــرفنـــا المعـــَارفُ والعـُرفـــا

فما بـــالهم سكـــرَ المحبـــةِ أنكـــروا
ولا شربـــوا مـــن خمر وجـــدانها صرْفـــا

يـــريـــدون إدراكَ المعـــانــــى حقيقـــة
وهـل يجد التحقيـق مـــن لم يجدْ وصـفـا
ومــــا الحَقُّ إلا ظـــاهــــرٌ فى وجــــودِهِ
وأسرارُه فى شرْح آيـــــاتـــــه تُلْفـــــى
فلـو قصدوا المقصـود بالصـدق شاهـدوا
مصــــابيــــح أنــــوار تُنــــزَّهُ أن تُطْفــــا
ولـــو أخلصـــوا فى ذاتـــه وصلـــوا بـــه
إليـــه ، ونـــالـوا عنـده أجْــرَ مـــن وفَّ
ولـو لمحـــوا معنَـى المحـــاسِـنِ صيغـــةً
لما وصـفـــوا قـرْطـــاً ، ولا ذكـروا شنْقـــا
ألا أيها الســـــاقــــى ظمئنــــا فَسقِّنـــا
بـألطافهـا يُشفى مِـن الجهـل ما يُشْفـى
وعـــاود ففـــى الأكـــواب منهـــا بقيـــةٌ
بها العيـشُ يسْتحلَى ، بها الأنـسُ يُستـوْفَى
ومـــا طيبهـــا إلا بلطـــفِ مـــُديـــرِهـــا
بحيـث مُنـادى الـرشـــد نَبـّه مـن أغفَـى
أمــــولاىَ يـــا مــــولاىَ دعـــوة مبعـــدٍ
على الهلْـكِ مـن تسـويـف رحلتـه أشفـى
بعثـــت ودادى واشتيـــاقـــى وسيلــــةً
وإنــّىَ فى بــاب الـــرجــاَ بـــاسـطٌ كفـّا
وإنّ ذنـــوبـــى كـــالجبـــالِ رجـــاحـــةً
وحبـُّك يـــا مـــولاى ينسفهـــا نسفـــا

الملجـــأ الأحمــى

لابن الجيّاب الأندلسى

« محبتـــه شرطُ القبــولِ ، فمـــن خلــتْ
صحيفتـــهُ منهـــا ، فقـــد زاغَ واشتطـــاً
بـــه الحقُّ وضّـــاحٌ ، بـــه الإفـــكُ زاهـــقٌ
بـــه الفوزُ مـــرجـــوٌّ ، به الــذَّنــبُ قد حُطّـــاً »

« هو أبــو الحسن على بن الجياب الأنصـــارى الأندلسى ، مـــن أهل غرنـــاطة جاء فى تـــرجمته فى كتاب الإحاطـــة فى أخبار غرنـــاطة (الجزء الأول) :

« شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ ، كان على ما كان عليه من التفنن والإمامة فى البلاغة والأخذ بأطراف الطلب والاستيلاء على غاية الأدب ، صـــاحب مجاهـــدة وملازمـــة عبـــادة ، على طريقـــة مُثلى فى الاستقامـــة والنزاهـــة وإيثار التقشف ، محب لأهـــل الخير والصلاح .. وهـــو شيخ طلبة الأندلس دراية وتحقيقًا ومشاركةً فى كثير العلوم ، توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية » .

يقول ابن الجيّاب الأندلسي :

أهــزْلاً وقــد جـدَّت بـك اللِّمـــَّةُ الشمطـا
وأمْنـــاً ، وقـــد ســـادرتَها حيــّةً رقْطـــا
أغـــرَّك طـــول العُمـــرِ فى غير طـــائلٍ
وسرك أن الموت فى سيره أَبْطــــــــــا
رويــــــدًا فـــــإن الموت أسرعُ وافـــدٍ
على عُمــرك الفـــانــى ركـــائبــهُ حطـــًّا
فــإذ ذاكَ لا تسطيــعُ إدراكَ مـــا مضـــى
بحـــالٍ ، ولا قبضـــًا تُطيـــقُ ولا بَسْطـــا
تـــأهـــَّب فقـد وافـــاكَ سيبـك مُنـــذرًا
وهـــا هـو فى فـــَوْديــكَ أحـــرفـَهُ خَطـــًّا
فـــرافقـــتَ منــه كـــاتـــبَ السر واشيـــًا
لـــــه العَلـــَم الأعلى ، يخطُّ بـــه خَطـــًّا
مُعمـــىّ كتـــاب فكـــّه احـــذرْ ، فهـــذه
سفينـــةُ هـذا العُمـــرِ قـــاربـت الشطـــًّا
وقــد طـــالما خــاضـت بـك اللُّجـــجَ التـى
خبطـــْتَ بهَا فى كـــُلِّ مهلكـــةٍ خبْطـــا
ومـــــازلـــــت فى أمـــواجهـــا مُتقلّبـــًا
فـــآونـــــةً رفعـــًا ، وآونـــــةً حطـــا
فقـــد أوشكـــتْ تلقيـكَ فى قفـــْرِ حفـــرةٍ
يُشـــدُّ عليـــكَ الجانبـــانِ بها ضغْطـــا

ولسْتَ على علم بما أنت بعْدها
مُلاقٍ ، أرضوانًا من الله أم سُخطا
وأعجبُ شيء منك دعواكَ فى النهى
وهذا الهوى المُردى على العقل قد غطّى
قسطتَ عن الحقِّ المُبينِ جهالةً
وقد غالطتْك النفسُ ، فادَّعت القسْطا
وطاوعْتَ شيطانًا تجيبُ إذا دعا
وتقبلُ إن أغْوى وتأخُذُ إن أعطى
تناءى عن الأخرى ، وقد حان حيْنها
تدانى من الدنيا ، وقد أزمعتْ شَحْطا
وتمنحها حُبًّا ، وفرْطَ صبابةٍ
وما منَحتْ إلا القتادَة والخمطا
فها أنت تهوى وصلَها وهى فاركٌ
وتأملُ قُربًا من حماها وقد شطًّا
صراطُ هدىً نكَّبتَ عنه عمايةً
ودارُ ردًى خالفْتَ فى حُبِّها الشرْطا
فما لك إلا السيدُ الشافعُ الذى
له فضلُ جاه كُلما يرتضى نُعْطَى
دليلٌ إلى الرحمن ، فانهجْ سبيلَهُ
فمن حاد عن نهج السَّبيل فقد أخطا

محبتـــهُ شرطُ القبـــولِ فمـــن خَلَـــتْ
صحيفتـــهُ منهـــا فقـــد زاغَ واشتطـــّا
ومـــا قُبلـــتْ منـــه لـــدى الله قُـــربـــةٌ
ولا زكـــت الأعمالُ بـــل حبطـــتْ حَبطـــا
بـــه الحقُّ وضـــاحٌ ، بـــه الإفـــك زاهـــقٌ
بـــه الفـــوز مـــرجـــوٌّ ، به الـــذنـــب قـــد حُطّـــا
هـــو الملجـــأُ الأحْمَى ، هـــو الموئلُ الـــذى
بـــه فى غـــدٍ يستشفـــعُ المذنـــبُ الخطـــّا[1]
لقـــد مـــازجـــت روحـــى محبَّته التـــى
بقلبـــى خُطـــت قبـــل أن أعـــرفَ الخطّـــا

(١) أى الخطاء (الكثير ارتكاب الخطايا) .

ســـلمى

لليافعى

« فيـاليلـةً فيهـا السعـادات والمنـى
لقـد صغـُرت فى جنْبهـا ليلـةُ القـَدْرِ
فلما شربنا الـراحَ فى ساحـة الرّضـا
أتانـا أغرُّ السعـد بالخلـعِ الخضرِ »

« هو عفيـف الديـن عبد الله اليـافعى ، ولـد فى اليمن ودرس الفقـه وعلـوم القـرآن ومـال إلى التصـوف ، فـارتحل إلى القـدس ودمشـق والحجـاز ومصر وأخـذ العلـم عـن أعـلام علماء عصره حتـى صـار مشهودًا لـه بالفضـل والمنزلـة ، له مـؤلفات مشهـورة فى التصوف ، أهمُّهـا: « روض الريـاحين فى مناقـب الصـالحين » الذى يضـم سير خمسمائة مـن أولياء الصـوفية ، « ونشر المحـاسن الغـالية فى فضـل أصحاب المقـامات العاليـة » وفيه يشرح اليـافعى الأحوال والمقـامات بأسلوب أدبى جميل ، كما دوَّن فيه أكثر ما نظمه من قصائد فى الحب الإلهى والترانيم الصوفية .

توفى سنة سبعمائة وثمانى وستين هجرية .

يقول اليافعي :

سلا عن حمى سلمى،وعن أهله الغرِّ
عسى خبرٌ يلقاكما ، طيّب الذكرِ
يجيءُ به من نحوها عذبُ منطق
يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ
يُخبّر عن سلمى وعن ذلك الحمى
وقول لسان الحال في نظمه الدرّى
رعى الله عهدًا مرَّ مع جيرة الحمى
هنا في رياضٍ زاهراتٍ بهِ زُهْرِ
سقتنا بها سلمى من الراح عندما
بدتْ فأضاء الكون من جانب الخِدرِ
أماطت حجابًا عن بهاء جمالها
فهمنا سكارى في المهامة والقفرِ
نرومُ التسلِّي عن هواها ببُعْدنا
وكلُّ جمالٍ في الوجود بها يغرى
خليلَّ ما سلمى ونجدٌ وما الحمى
وما راحُها ، ما كأسُها ، ما الهوى العُذرى
شربنا حميًّا الكأس في قُدس حضرة
وأكرم بها في حضرة القُدْسِ من خمْرِ
لنا عُصرت من كرْم نورِ جمالِ من
سقانا ، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

سكـــرنـــا بها مــن شمهـــا قبـــلَ شرْبها
نشـــاوى بـريـــّاهـــا إلى آخـــر الــدهـــرِ
أو السّكـر ذا مــن رؤية الكـأسِ ، أو أنـتْ
بــه رؤيــة الســاقـــى إلينـا ذوى السُّكـرِ
تجلَّى بـــأوصـــافِ الجمالِ فشـــاهــدت
عيـونٌ قلـــوبَ مــا بـــه حــار ذو الفِكــْرِ
فيـــاليلـــةً فيهـــا السعـــاداتُ والمَنـــى
لقـــد صغـــُرت فى جنبهـــا ليلـــةُ القـــدْرِ
فلما شربنـــا الـــراحَ فى ســاحـــةِ الـــرِّضـــا
أتـــانـــا أغـــرُّ السَّعـــْدِ بـــالخلـــعِ الخُضْرِ
رســـــول عنـــايـــاتٍ بـــــرســـْم ولايـــةِ
وتصريفنـــا فى الملـــْكِ فى الْبَرِّ والبحـــْرِ
وضـــاءت لنـــا أنـــوارُ غيـْب وشـــوهـــدت
أمـــــــورٌ وأعلمنـــــــا بها أنها تجرى
وحلّـــــت بــوادى طـــور قلـــب معـــارف
زهــت فيــه كـــم حسنـــاء فى داخــل الخدرِ
وكـــمْ حكـــم تُجلى مـــــلاح ، كـــأنها
عـــرائسُ أبكـــــارٌ على منطـــق الـــدرِّ
وكـــم يـــدفـــع الله البـــلايـــا بســـادةٍ
مـن الخلـــْق فى كشـــفِ الشـــدائد والضُّرِّ
فمـــنْ لم بـــذا يـــؤمـــنْ ، فقـــولـــوا لـــه إذا
تَجرًّا على الغـــرِّ المشـــايـــخ بـــالنُّكـــْرِ

تجلّى فضـــُـولا فى فضـــائل ســـادة
لهم فى سما مجدِ المفـــاخــر كـــم قَصْرِ
مقــامـــاتُ أحبـاب تـــرى الشهـب دونَها
بنـــوْهًـــا بيـــاقــوت المواهـــبِ والـــدرِّ
تضـــىء الـــدّيـاجـــى مـــن بهاء جمالِها
بما يهتـدى مـَنْ للعـلا نحـوهـَا يسرى
ومــا تلــك مـن أشبـاهِ عُشِّــك ، فـادرُجـى
إلى جـوفِ عـــشٍّ فى الغيـابـــاتِ أو جُحْـرِ

المنبهجـــة

مصطفى البكرى

« مـــولاى أتَـيْـتُـــك منكسـرا
وبغيرك شـــوقـــى لم يهجِ
هـــل غيرُ جنـابِـكَ يقصـــد ، لا
وجمالـــك ذى الحُســـنِ البَهِـجِ »

« ولد فى دمشـق سنة ألـف وتسع وتسعين هجرية ، حيث تعلم العلوم الـدينية ثم انتسـب إلى الطريقة الخلوتيـة وأخذ عن مشـايخها وأقطابها ، ونذر نفسه للزهد والتقوى والتـزوه للآخرة ، ثم هاجر إلى مصر ونشر فيها الطريقة الخلوتية ـ التى ما يزال لها أشياع ومريدون حتى اليوم ـ حيث توفى سنـة ألف ومائة واثنتين وستين هجرية ، بعد أن ترك آثارًا شعـرية وأورادا وابتهالات صوفية كثيرة مـن بينها هذه القصيدة التـى سميت بالمنبهجة ويقـرؤها جميع مـريديه يوميـا قبل صلاة الفجر » .

يقول مصطفى البكرى :

قــــم نحـــــو حماهُ وابتهــــج

وعلى ذاك المَحْيــــــا فعــــــُجِ

ودع الأكــــوان وقـــمْ غسقــــًا

واصــــدق فى الشــــوق وفى اللَّهـــج

والـــزم بـــاب الأستــــاذ تفـــُزْ

وتكـــون بـــذلـــك خـــلَّ نجــى

واخـــرج عـــن كـــلِّ هـــوى أبـــدًا

ودع التلفيـــــق مــــــع الهرَجِ

إيـــاك أُخـــىَّ تـــرافـــقُ مـــن

لم ينْهــكَ عـــن ُطـــرق العـــوج

اقنـــع وازهـــدْ واتـــركـــْهُ كـــذا

كَ ببـــابِ ســـواهُ لا تلـــج

وادخـــل للحـــان خليلى ومـــِلْ

نحـــو الخمَّار أبـــــى السُّرُجِ

واشرب واطـــرب لا تخْشَ ســُوًى

إيـــاك تملْ عـــن ذى النَّهـــَجِ

كـــم أنـــت كـــذا ، لم تصْـــُح ، أفـــقْ

وإلى الأبـــوابِ فقــــمْ ولـــُجِ

مــــــولاى أتيتـــــــك منكسرًا
وبغيرك شـــــوقــــــى لم يهج
وأتيـــتُ إليـــك خليـــًا مـــن
صـومـى وصـلاتـى مـعْ حججـى
وكـــــذا علمـــــى وكـــــذا عملى
وكـــذاك دليلى مــــعْ حُججـــى
لا أملـــك شيئـــاً غير الـــدَّمــْـ
ـــعِ مخافـةَ أن يغشـــى وهجـى
هــل غيرُ جنـــابِـك يُقصـــدُ ، لا
وجمالـــك ذى الحســـنِ البهـــجِ
مـــــن يقصـــد غيرك فهـــو إذا
بظـــلام البعـــد تـــراهُ فجـــى
مـن أنـــت تُضـلُّ فـذاك مـــن الـــ
ـــــهلاكِ ومـــــن تهدى فَنجـــى
ودمـــوعُ العين تُســـابقنـــى
مـــن خـــوفـك تجرى كـــالّلجـــج
يـــا عـــاذلَ قلبـــى ويـــكَ فـــدعْ
عـــــذْلى واقْصِر عـــــن ذا الحرج
كـــم تعـــذلنـــى لم تعـــذرنـــى
دعنـــى فى البســـطِ وفى الفـــرَجِ

أذنـــى لحبيبـــى صــــاغيـــةٌ
صُمـــَّتْ عنـد الــواشـى السَّمــجِ
يـــا صـــاحـبَ حـــانِ الخَمـْـرِ أدرْ
صرفـــــًا واتــــرِكْ للممتـــــزجِ
وأدرْ كـــــأس الأسرارِ ودعــــــــ
نِ أصيرُ بـــــه مــــن ذى الهمــــج
مــــولاى بسر الجمــــع كــــذا
ك وجمعِ الجمـــعِ وكــُلِّ شجـــىِ
بــــالـــذات بسرِّ السرِّ ، بمــــن
إفضــالــك ربِّـــى منــك رُجـــى
بحقيقتـــــك العظْمـــى ربِّـــى
وبنـــــورِ النــــور المنْبَلـــــجِ
بعماءٍ كنـــــــت بـــــــه أزلًا
بمحمــــد مــــن جـــا بــالبَلــَجِ
وبِسَر القـــــُرب كــــــذاك الحـ
ـــــبِّ ، وأهــــل الجذْبِ المنُعــــرجِ
وبما أوجـــــدْتَ مــــن الأكـــــوا
نِ بما فيهـــــنَّ مــــــن الأرجِ
وبــــأهــــل الحى وبهجتهــــم
وببحــــرِ القـــــدرةِ والمَرج

وبطيبِ الوصلِ ولذته
ببساط الأنسِ المُنْتَسَجِ
وبقلب فى بلواكَ غَدَا
وحياتكَ ليسَ بمنزعجِ
بتجلّى الليل وعالمه
وظلام الكون كما السَّبَجِ
بمنازل أفلاكٍ وكذا
بمطالعها ثم البُرُجِ
بالآل ، بصحب ، من بهمو
كُلُّ الخيرات إلينا تجِي
يسِّر وأجْر كَسْرى ، برضًا
ليكون بوصلك مبتهجى
واخلعْ خِلَعَ الرِّضوان على
صبٍّ فى حُبِّك حِبُّ هجِ
وامنح قلبى نفحاتك يا
مولاىَ وعجِّلْ بالفَرَج
واحسرةَ قلبى إن لم تَمْحُ
خطايا الذَّنبِ من الدَّرجِ
واغفرْ ياربّ لناظمها
وله رقِّى أعلى الدَّرجِ

واسمــــعْ للســـامِـع مـــا نُشـــدت
قــــم نحـــــو حماهُ وابتهـــــجِ
أو مــــــا جـــاء سَحـــرًا يحدو
الشـــدّةُ أودتْ بــــــالمهـــــجِ
وصــــــــــــــــلاةُ الله على الهادى
وســـــلام يُهدى فى الحِجـــــجِ
لمحمـــــــــدنــــــا ولأحمدنــــــا
مـــــا فـــاح أقــــاحٌ فى المُرُجِ
مــــــــــا مــــــال مُحب يهواهُ
أو ســــار الـــركـــبُ على السُّرُجِ
أو مــــــا داعٍ يـــــدعـــو المولى
يـــرجـــو للنصر مـــع الفـــرجِ

مـــالـى ســـواك

لأحمد الحلوانى

« أستغفـــرُ الله ممـــا قـــد قلتـــهُ وهـــو زورُ
ومـــن تنـــاسٍ بِنـــاسٍ ، عمـــن هـو المذكـــورُ »

« هو الشيخ العلامـة أبو عبد الرحيم أحمد بن إسماعيـل الحلوانى الخليجى الشافعى ، ولد سنة ألـف ومائتين وتسع وأربعين هجرية فى بلدة رأس الخليج مـن أعمال محافظة الغربية، وحفظ القـرآن ثم أتقن علوم الدين واللغة ، ثم ارتحل إلى طنطا لتحصيل المزيد من العلم حتى انتهى به الأمـر إلى الأزهر الشريف حيث تتلمذ على صفـوة الأعلام من علمائه كالقَصبى والباجـورى والخضرى والشبراوى . توفى سنة ألف وثلاثمائة وثمانـى هجريـة بعد أن تـرك وراءه عدة مصنفـات دينية والكثير من الأشعار والأذكار الصوفية »[١].

(١) السمو الروحى فى الأدب الصوفى تأليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى.

يقول أحمد الحلوانى :

أستغفـــر الله ربـــى ... فـــالله ربٌ غفـــورُ
ممـا جنـاهُ جنـَانــى ... أو اللســانُ العَثـُـور
أو الجوارحُ منـــىِّ ... فـــإنها قـــد تثــورُ
أو ظاهرٌ ليـس يَخفى ... أو بــاطــنٌ مستــورُ
أستغفـــرُ الله ممــــا ... قـد قلْتـُه وهــو زورُ
ومـن تَنـاسٍ بنـاسٍ ... عمـَّن هــو المذكـورُ
ومـن خـلافِ أمـور ... أنـــا بهاء مـــأمــورُ
أستغفـــرُ الله ممـــاً ... جـَرى بــه المقـدورُ
مـن كلِّ أمـر معيـب ... قـد كنتُ فيـه أمـورُ
لم يُرض ربـِّى وقلبىَّ ... بكسْبـــه مسرورُ
إن سرتُ يـومـًا إليـه ... أطير حين أسيرُ
وعنـــد أولِ جـــزءٍ ... منـــهُ يجىء الأخيرُ
وإن تـوخيــتُ خيْرًا ... صرفـًا فكـم أستخيرُ
وإن تهممـتُ يـومـًا ... إليـــه جـاءَ الفُتــورُ
وللتقـــدم أنـــوى ... فيعـــرُض التـــأخيرُ
هبْنى تقـدمتُ ، مـاذا ... يُجدى وقلبـى نفـورُ
وهبـْـه غيْرَ نفـــورٍ ... هل فيـه ثمَّ حضـورُ
عـدمتـهُ مـــن فـؤادٍ ... عنـد الصـــلاةِ يطيرُ
أنـوى فيذهـبُ لُبـِّى ... وفى الســـلام يحورُ
أظـلُّ أحســِبُ فيهـا ... وما تحتويـه الدُّهورُ

كأنّني بحسابي … مُوَكّلٌ أو أجيرُ
فلو تراني فيها … لقلتَ : ذا مبهورُ
ففي العبادة طرْقي … ولو بصيرًا ضريرُ
وفي الذنوبِ فؤادي … على عَماهُ بصيرُ
يا ويْلنا من ذنوب … فُجورُها مفجورُ
ومن خُطايَ اللواتي … إلى الخطى تستطيرُ
وآه من كُلِّ إثم … عليه يُطوى الضميرُ
ومن مقاصد سوءٍ … جرى به التعبيرُ
شيءٌ ومنْ لست أدري؟ … فذاك شيءٌ كثيرُ
قبائحٌ كنتُ فيها … أسْرى وطوْرًا أسيرُ
ماتت وعاشت، فقلبي … من أجلها مفطورُ
سُررتُ منها زمانًا … وغمُّها مذخورُ
نسيتها ودعاها … كتابيَ المسطورُ
ماذا أقول لربِّي … إذا بدا التصويرُ
ياربِّ أنت رحيمٌ … وبالسَّماحِ جديرُ
ياربِّ أنت عفوٌّ … وأنت ربٌّ قديرُ
ياربِّ إنني حقيرٌ … جدًّا وأنت الكبيرُ
وشأنُ من جَلَّ يغضي … إذا أساءَ الحقيرُ
وأين تُربٌ خسيسٌ … من ربِّه يا مُجيرُ
وما أريدُ احتجاجًا … عليكَ بل أستجيرُ
أجرْ عبيدَكَ يا منْ … سواه ليس يُجيرُ

مــالى ســواكَ أَغثنــى وهــل ســواكَ نصيرُ
ولى إليــك شفيـــعٌ بـــــدرُ السماءِالمنيرُ
غــوْثُ الأنام المرجَّــى إذا السماء تمورُ
بــه توسَّلــتُ فــاجبر كَسْرى ، فإنى كسيرُ
واسكُب عليه التحايا ما فــاض منه النــورُ

تعشقت نور الله

للشيخ على عقل

وهــــل غير ذات الله للنفــس مطلـــب
حرامٌ سوى الرحمن يدخلُ فى نفسى
وما اتَّخذت روحــى سوى الله غــايةً
فتــم الهدى للروح والقلــب والحسِّ

« هــو الشيــخ على عقــل أحــد علماء العصر فى التصــوف والعلــوم الشرعية ، ولــد سنة ألــف وثمانمائة وأربع وتسعين ميــلادية ، وكـف بصره بعد مولده ، فوهبه والــده للقرآن والدين منذ صغره ، ودرس فى الأزهر الشريف ، ثم تقلبت به مجالس الذكر والإنشاد حتى صار علمًا يتعشقه المريدون ، توفى سنــة ألف وتسعمائة وثمانى وأربعين بعد أن ترك ديوانا شعريا يضم ترانيمه الصوفية ومدائحه النبوية هو ديوان « الإلهام »[١].

---

(١) السموّ الروحى فى الأدب الصوفى تأليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .

يقول الشيخ على عقل :

قتلتُ هوى نفسي ، فعشتُ بلا نفْسِ
وجافيتُ أنسي ، فانحدرتُ إلى الأنْسِ
ولم أبدِ أمري للعبادِ ، فطالما
كتمتُ الذى ألقى عن الجِنِّ والإنْسِ
وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبَّتى
وعانيتُ آياتِ اليقين بلا لبْسِ
وعشتُ زمانى لست أحفل بالورى
وكيف ، وقلبي هام فى مشهدِ القُدْسِ
وعلَّمتُ غيرى ما أفادَ من الهُدى
فلم يبقْ ذو فهم لديَّ على طمْسِ
إذا وُسّد الناسُ القبورَ ، فإننى
جعلتُ التقى والذكر بين الورى رمْسى
ولم أخْشَ من بأس ولم أخشَ طاغيًا
ومن يخشَ ذات الله لم يرَ من بأسِ
وهل غيرُ ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ
حرامٌ سوى الرحمنِ يدخلُ فى نفسى
وتوجّتُ بالقرآنِ نفسى عقيدةً
أصونُ به نفسى عن الزَّيْغ والدسِّ
وما اتخذت روحى سوى الله غايةً
فَتم الهدى للروح والقلبِ والحسِّ

وإن شرب النـــاس الطـّلا وتصببـــوا
فسُنـــةُ خلـــق الله فى شُربها كـــأســـى
وإن رفـــع المثــرون عُجبـًا رءُوسـهـــم
رفعـتُ بـذكـر الله فـــوق الـورى رأسـى
وإن جعلـوا الشمـــس اهتـداءً ليـــومهـم
جعلـــتُ رضـــا ربـِّى وآيتـــه شمســـى
وإن غـــرســـوا زرْعـًا لنيْـلِ حصـــادهِ
فتقـْوى إلـه العرش بين الـورى غـَرســـى
تعشـّقـــتُ نـــور الله وهـــو بصيرتـــى
وقـد وضـح البرهـانُ مـن آيـة الكـرســـى
ومـذ شـاهـدت روحى جـلالـكَ وارتقـتْ
تجرَّدتُ عـــن معْنـــاى فى عـــالمِ الحسِّ
أحبـّك يـــا ربـــى محبـــّةَ مـُوقـــنٍ
ومـــن قـــوةِ الإيمانِ أُصبـــح أو أُمســـى
فـؤادىَ قـد أبعـدتُ عـــن مشـهـد الـورى
فطُهـّر فى نجـــواكَ مـن ظلمـةِ الـــرِّجْسِ
أطـــوف على الأبـــواب قلبـــىَ مـُوجـَعٌ
وليـس سـوى رحماكَ للقلـب مـن نِطـْسِ
وأعـــدمنـــى فى الحبِّ علمـــى بقـــدْرِه
فليـس غـرامـى فيـــه يـدرك عـن قيـْسِ
ولم أعشـــق الـــدنيـــا فتلـــك مجازة
تهىءُ لـــلأخـــرى وفى فـوتها عـُرســـى

لقاؤُك يا رحمنُ عيدى وعُدتى
ونُورك غيثى وهو لى فى الورى أُنسى
وبحْرُك منه قد لقيتُ جواهرى
بشاطئه سُفنى على لُجِّهِ غَطسى
وطيبُ الورى ورْسٌ ومسك وعنبرٌ
وطيبىَ من مَحْياكَ أَسمى من الورسِ
ولستُ من الدنيا ، أميلُ إلى العُلا
فإنَّ عُلا الدنيا لأصحابه يُنسى
أُمتع أعضائى بذكرِكَ دائمًا
وهل غيرُ ذكْر الله يسكُنُ فى نفسى
وكُلُّ رجائى أن أحبك صادقًا
إذ الصدقُ فى الوجدِان مرتبة القُدْسِ
وما فضله وقْفٌ على أىِّ عالم
وحقِّك ما حُدَّ العطاءً على جنس
إذا رضى الرحمن عن قلب عَبْدِهِ
جرت مركَبُ الأقدار معه على اليبْس
تخلَّ ولا تحفلْ بجنٍّ ولا إنْسِ
وعشْ فى هوى الرحمنِ تسعدُ بالأنْسِ
وأقبل على مولاك بالقلب مخُلصًا
وأسلمْ وسلّم واَتَّجه طالب القُدْسِ
وخُذ لك بالإيمان أصدقَ وجهة
وطهر بها نفسًا عن الغى والرجس

تجرد تجدْ مــــولاكَ أكبرَ نــــاصر
وفـوّض لــه مـا كـان فى الغـد والأمْـسِ
حيــاةُ الــورى حُلــوٌ وُمــرٌّ وإنما
حـلا المرءُ بـالتـوحيـد مـن رقـة الحسِّ
ومــن لا يــرى إلا الإلــه مــراده
حرامٌ عليـه الخوضُ فى العرشِ والكـرسـى
ومــن يتعشــق نــوُره وجــلاَلــهُ
فليـس لـه التشبيـبُ بـالبـدْرِ والشمـسِ
وإنــك لــو عظّمْـتَ دينــَك عــالمًا
وعـاملــت بـالحسْنــى وأدَّبــتَ للنَّفـسِ
وكنــت على الأحــداثِ بــالله راضيــًا
ســواءٌ عليــك الموتُ أو ســاعــةُ العـُرْسِ
سعـدْتَ مــن الـدنيـا بـربــِّك محُسنـًا
ونلـت مــن الأخـرى عطـاء بــلا بخْـسِ
يقـولـون لى مـن أنــت ؟ قلـتُ : مـُوحـّدٌ
إلى ربــه يسعـــى ولم يــرَ مــن بــأْسِ
إذا قيــل لى اطلـبْ قلــت ربـِّىَ مطلبــى
وإن قيـل لى اشربْ قلـتُ أنـواره كـأسـى
وكــلُّ عهــودٍ قــد تنكّــس أصلهــا
ولكـــنَّ عهـــد الله بــاق بـــلا طَمـْسِ
سلـونـى عـن العشـاق قـد ذقـتُ حُبَّهـم
وإنـــى لهم رأسٌ إذا كــان مــن رأْسِ

وما هم سوى أعضاء جسْمى وبزتى
أصافحهم ما شئتُ لكن بلا لمسِ
وما حيلتى إلا انكسارىَ فى الحمى
وإن انكسار القلب يكشف عن قدسى
وحلوُ الهوى عندى لقاء أحبَّتى
ومُر الهوى عندى وفى هجرهم تعْسى
وأعرفُ رحمانى وأُدركُ عفوهُ
وأنهض معتزا وما أنَا بالمنْسى
وإنَّ حبال الوجدِ تربط مهجتى
وقلبى بحبٍّ الله يعبق كالورس
وإن كنت فى سعدٍ فذلك فضلهُ
وإن لم أكنْ من سادة العُرْبِ والفُرْسِ
فقلْ للذى يُزجى الشراع دع الكرى
تجد سُفن الإحسانِ تجرى على اليبسِ
وسِرْ موقنًا أن الإجابة للهوى
إذا ما دعا الداعى ولا تكُ فى حدْسِ
فكلُّ الذى تراه والكون خلقهُ
وما نفع التفريقُ بالنوْع والجِنسِ
حسبتُ الهوى سهلًا فخُضتُ عبُابَه
فطورًا به أطفو ، وطورًا به غَطْسى
إلى أن أتتْنى منْ لدُنهُ عنايةٌ
وصلتُ بها برَّ السلامةِ والأنسِ

موسيقى من الله

للشاعر محمود حسن إسماعيل

« الدَّرْبُ ضوّأ للسُّراة حقيقةً ، وحصادَ نُورْ
وهدى الدُّجى ، وتمزَّقت حجُبُ الرياءِ ، على الحضُورْ »

« محمود حسن إسماعيل أحد الأصوات الشعرية الكبرى فى عصرنا الحديث ، ولد فى قرية النخيلة بمحافظة أسيوط فى الثانى من يوليو سنة ألف وتسعمائة وتسع وكانت وفاته - فى الكويت - فى الرابع والعشرين من أبريل سنة ألف وتسعمائة وسبع وسبعين ، عن رحلة شعرية طويلة وحافلة ، أصدر خلالها عددًا كبيرًا من الدواوين الشعرية تأكدت بها منزلته كشاعرٍ أصيل له لغته الشعرية المتفردة وأسلوبه فى التصوير والتعبير ، وتجاربه الوجدانية والكونية المميزة ، من بينها أغانى الكوخ - هكذا أغنى - أين المفر - نار وأصفاد - قاب قوسين - لابد - صلاة ورفض - نهر الحقيقة - هدير البرزخ - صوت من الله » وهذه القصيدة من ديوانه موسيقى من السر الذى صدر فى الذكرى الأولى لرحيله .

يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل :

وهناك عند الفجْرِ فى إشراقةٍ كلظى الهجيرْ
وعلى خُطى قمرّيةَ الإيماضِ ،
يسْفحُ نُورُها كذب الصخور
روضٌ رحيبٌ ، أجهشت فيه الزهور
وتكلمت بعطوره لغةُ الطيور
وتأوّهت ريحٌ مجُنحةُ المسيرِ ، على مخاصرِه تدور
وترنَّمت ورقاء صاليةُ الشّعور
معشوقتى وعشيقةُ النغمِ المُصفدِ فى الوُكُورْ
وذبيحتى ، وأنا الذبيحُ ، وجازرُ الرؤيا أسيرْ
مُتلفّعٌ تحت العروقِ ، بمهدِه الثَّملِ الوثيرْ
فى كفّه نهرُ الحياةِ ، لهيبُهُ قلقٌ مرير
وعلى شواطئه هتافٌ لجَّ فى ندم غرير
وضراعة بلهاء تصرخُ وهى هالِعةُ النفيرْ
وخطيئة تلدُ الحياةَ ، ومهدُها يلدُ الدثُور
وصدًى يغرّدُ نائحًا ، وبدمعه يلْغو السُّرور
وغمامةٌ عرجاء دوَّخها المسيرْ
آناً تسيرُ وآنةً تبكى المصيرْ
والأفق مصلوب كسِيرْ
شحَنَتْهُ أوهامُ العصورْ
ومسابحُ النساكِ وهى على مزالقها تدور
الكفُّ مؤمنةٌ، وظلُّ الكفِّ مشنَقةُ الضميرْ

وتمائمُ المتبتلين كأنها حرجُ الغواية فى الصدور
مسكينة الأصداء تَلْعقُ فى المداهنِ والبخورِ
وتَئنّ فى حباتها الدعواتُ ،
جائعة الهدى لزجاج كوبٍ أو حصيرِ
متلمّظاتٍ للورودِ ،
على هوادجَ أخجلتْ خشبَ النُّذورْ
يتلقَّفُ الأزوادَ ، من عبقٍ تناسمَ بالشرورْ
والنور ، من حَلَك تناغمً فى الجذُور
والطُهْر ، من شطحاتِ أوهام وزور
وتعانقُ القُدْسَ المنيعَ ، كأنما سكن السّتور
بفهيق راغية محبّرة على زبد الثغور
ونقيق غاوية مبعثرة على خَبلٍ جسير
متُخالج اللمحات .. أعمى دُسَّ فى ألَق ضرير
طحنتهُ سُنبلهُ السيادِة بالقشورْ
والرزق ، والعوز المخدر بالسكينة والحبورْ
ولواه جلاّبُ المطايا للغرور
ومضفر الأصلاب أعتابا مطهمة الظهور
أقواسُها تئدُ السهامَ ، وتُنشبُ العشْبَ الحقير
وتحيلُ هشّ الوارفين ، مشاتلاً لرُبى القصور
وعلى خضوع الهائمين بكفِّها تعلى الجسورْ
وتدورُ تطحنُ فى غيابتها ، فتطحنُ أو تدور !
سبحان وهّاب الظلام لمن يريدُ بصيص نور

سحبوا من الأكفانِ قُدرتَه ، ولجُّوا فى الثبور
وتأوَّدوا خببًا ، وتهتهةً ، وليّا للصدور
فى حومةٍ لا للسماء ، ولا التراب
لدفِّها نَسَبٌ يُشير
زعموا لقاء الله وحدهمو ، وجلَّ
فنوُرُه غمر الدهور
فى الحب ، فى الأمل المحلّق ، فى الأجنّة ، فى البذور
فى الريح ، فى النسيم المرنح ، فى العشايا والبكور
فى الطيف ، تلمحهُ ظلالُ ظلالِه فوق الغدير
فى السَّفح ، فى ضجر المغاور ، فى البرازخِ ، فى البحور
فى كُلِّ راقِىء دمعةٍ من جفن مظلوم فقير
فى كلِّ كاسرِ حلْقةٍ ، من قيد مهجورٍ أسيرْ
فى كُلِّ رافضَ لُقمةٍ ، للّيلِ ، جالبها أسيرْ
فى كُلِّ واهب روحهِ غوثَ التراب المستجيرْ
فى كُلِّ ذاتٍ حركتْ عدمَ الفراغَ إلى الصَّريرْ
فى خُطوةِ القَدمِ الذى هتك البراقعَ عن دجى
القمر المنيرْ
وحدَا السَّدَيم ، وشق بين يديه أسرار الأثيرْ
ومشى على الأجيالِ ، يسحقُ جهلَ عالمها الضَّرير
ويزيحُ ستر الغفلِ عن إعجاز خالقهِ القدير
الدَّرْبُ ضوٌّأَ للسُّراَة
حقيقةً ، وحصادَ نُورْ

وهوى الدُّجى،
وتمزَّقت حجبُ الرياء على الحضورْ
فالله يصحبُ كُلَّ من صحِبَ النهارَ ...
ومال عن غبشِ الستورْ

على بـــاب الـرجـــاء

شعر : طاهر أبو فاشا

« فى طليعة الأصوات الشعرية المعاصرة ، ذاعت له شهرة من خلال كتابته الطويلة للبرنامج الإذاعى الشهير « ألف ليلة وليلة » والأوبريت الإذاعية « رابعة العدوية » التى سكب فيها عصارة شعره فى الحب الإلهى الذى ضمَّنه ديوانه « راهب الليل » .

وقد أصدر الشاعر ، قبل وفاته ، مصنفه « ألف يوم ويوم » بعد أن أصدر دراسته الأدبية « الذين أدركتهم حرفة الأدب » عن الشعراء والأدباء الذين شقوا بحظوظهم فى الحياة ، بالإضافة إلى ديوانيه الأخيرين : « الليالى » و « دموع لا تجف » .

يقول طاهر أبو فاشا :

غـريـبٌ على بـاب الـرجـاء طـريـحُ
ينـاديـك موصـول الجوى وينـوحُ
يهون عذابُ الجسـم والروح سـالم
فكيـف وروح المستهـامِ جـروحُ
وليس الـذى يشكو الصبابة عـاشقًا
ومـا كـلُّ بـاكٍ فى الغـرام قـريـحُ
يقـولون لى غنـىِّ [1] وبالقلب لـوعةٌ
أُغنـىّ بها فى خَلْـوَتى وأَنـوحُ
ولى فى طـريق الشـوقِ والليلُ هـائمٌ
معـالم تخفـى تـارةً وتلـوحُ
ولى فى مقـام الـوجـد حـالٌ ولـوعـةٌ
ودمـع أُدارِى فى الهوى ويبـوحُ
وأنت وجـودى فى شهودى وغيبتـى
وسرُّك نـور النـورِ أو هـو رُوحُ
ومـا دخلـتْ إلاَ إليـك مـواجـدى
وداعـى الهوى بـالـوالهين يصيـحُ
بسرِّ الهوى يغـدو وفيـه يـروحُ
غـريـبٌ على بـاب الـرجـاء طـريـحُ

* * *

(١) الحديث على لسان رابعة العدوية فى الأوبريت الإذاعية التى تحمل إسمها .

حانةُ الأقدار عربدت فيها لياليها ودار النور
والهوى صاحي
هذه الأزهار كيف تسقيها وساقيها بها مخمور
كيف يا صاح

سألتُ عن الحبِّ أهل الهوى
سُقاة الدموعِ ندامَى الجوى
فقالوا حنانَكِ من شجْوِهِ
ومن جِدّه بك أو لهوه
ومن كَدر الليل أو صفوِهِ
سلِ الطيرَ إن شئتِ عن شدْوِهِ
ففي شدْوِهِ همساتُ الهوى
وبرْحُ الحنينِ وشَرْحُ الجوى

* * *

ورحتُ إلى الطير ، اشكو الجوى
وأسألُهُ سِرَّ ذاكَ الجوى
فقالَ حنانَكِ من جمْره
ومن صحْوِ ساقيه أو سُكْرِهِ
ومن نهيِهِ فيك أو أمْرِه
سلِ الليل إن شئتِ عن سرِّه
ففي الليل يبعثُ أهلُ الهوى

* * *

ولما طـوانـى الـدُّجـى والجوى
لقيـتُ الهوى وعـرفـْتُ الهوى
ففـى حـانـة اللَّيـْل خمَّارُهُ
وتحت خيـامِ الـدُّجـى نـارهُ
وفى كـلِّ شـىءٍ يلـوحُ الهوى
ولكـنْ لمن ذاقَ طَعـْمَ الهوى

* * *

يا صُحبةَ الرَّاح : أهلُ الراح هل حانُوا
وهـل تغنـَّتْ على ألحانها الحانُ
صبا النَّدامى وما فى الحانِ ألحانُ
فى كأس عُمرى بقايا ، منْ يُشاربنى
ومن يُطارحنى والعيشُ ريْحانُ
ثُمالةٌ من دموعِ الشجْوِ ألوانُ
إبريقُها راح يبكى وهو فرحانُ
ثُمالـةٌ ، آهِ لو فـاضـتْ ، وآه إذا
غاضـتْ ، وواهًا لها ، والقلبُ لهفانُ
عهدى بها وكُؤوسُ الصَّفْو مُترعةٌ
بهنَّ طاف على السَّكرى سُكْرانُ
لا يشربُ الـراحَ ، إلا أنـه ثمـلٌ
نشوانُ والكأسُ فى كَفَّيْهِ نشوانُ
ترى تعود الليالى والهوى معنا

يا غُربةَ الكأسِ ، ما للكأسِ نُدْمانُ

* * *

عرفتُ الهوى ، مذْ عرفتُ هواكا
وأغلقتُ قلبيَ عمَّنْ سواكا
وقمتُ أناجيكَ ، يا مَنْ ترى
خفايا القلوب ولسْنا نراكا
(أُحبك حُبَّيْن : حُبَّ الهوى
وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا)[1]
(فأمَّا الذى هو حُبُّ الهوى
فشغلى بذكرك عمَّنْ سواكا)
(وأمَّا الذى أنت أهلٌ له
فَكشفُكَ لى الحُجْبَ حتى أراكا)
(فلا الحمدُ فى ذا ولا ذاكَ لى
ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا)
وأشتاقُ شوقَيْن : شوقَ النَّوى
وشوقًا لقرْب الخُطى من حماكا
فأما الذى هو شوقُ النَّوى
فَمسرى الدموع لطولِ نَوَاكا
وأما اشتياقى بقرب الحمى
فنارُ حياةٍ خَبتْ فى ضياكا

---

(١) الأبيات الأربعة التى بين الأقواس من شعر رابعة العدوية .

ولســتُ على الشَّجْوِ أشكــو الهوى
رضيــتُ بما شئــْتَ لى فى هـــواكــا

* * *

لغيرك مــا مــددْتُ يــدا — وغيرُكَ لا يفيضُ نــدى
وليس يضيقُ بابُك بى — فكيف تــردُّ منْ قصــدا
وركْنُك لم يــزَلْ صمدا — فكيف تــذودُ من ورَدا
ولُطْفُكَ يا خفىَّ اللّطْفِ — إن عادى الــزمانِ عــدَا

* * *

على قلبى وَضعــْتُ يدا — ونحْوكَ قد مــددْتُ يدا
سَرى ليلى بغير هـــُدًى — ولا أدرى لأىٍّ مـــــدى
يُطاردنــى الأسى أبــدا — ويرعـــانى الجوى أبــدا
وينشرنى الهوى رُوحًا — ويطوينــى الهوى جسَدا
وأطوى البيــدَ طاويــةً — كأنّى فى الفضــاءِ صدى
نهارى والهجيرُ لظـــىً — وليلى والظـــــلامُ ردَى
فــواكبــدا إذا أضحــىَ — وإنْ أُمســى فــواكبــدا
وليــس سواكَ لى سَنــدٌ — فَقَــدْتُ الأهْلَ والسَّنــدا

* * *

على عيْنــى بكتْ عينــى — على روحى جنــَتْ رُوحى
هــواكَ وبُعْدُ مــا بينــى — وبينـــك ،سرٌّ تبريحى
صحا من شجوه كأسـى — وقــد نــامَ الخليـــّونــا

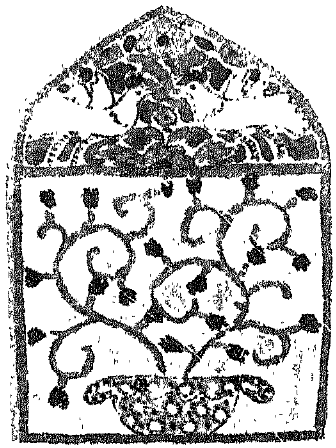
فكيف أفـرُّ من نفســى إذا هــام المحبــونــا
حيائى منــك يبُعدنــى وداعى الشوق يُدنينى
ووجهُ الصفحِ يُخجلنى ويقتلنــى ويُحيينــى
خلـوت إليـك يــاربــى وقلــت عساك تقبلنــى

مددت يدى
إليك ومنك يا ربَّاه
ومن طول النَّوى أوّاه

الفهـــــرس

رقم الإيداع : ٢٣٩٨ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : ٩٧٧-٠٩-٠٠٥١-٦

مطابع الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



أحلى عشرين قصيدة في الحب الإلهي

إذا كانت الحلقة الأولى فى هذه السلسلة قد توقفت عند تجربة الحب فى الشعر العربى ، وحملت عنوان «أحلى عشرين قصيدة حب » فى هذا الشعر، فإن هذه الحلقة الثانية تتقدم إلى ساحة أسمى من ساحات هذا الحب هى ساحة الحب الإلهى ، حيث فاضت وجدانات العشاق الكبار من الشعراء بأنغام وترانيم وألحان تطهروا بها ، وحلقوا من خلالها ، دُنوًّا واستشرافًا من الأفق الأعلى والأسمى ، حيث ينابيع الروحانية، والفيض الغامر ، وحيث تمتلئ النفوس بأقباس من النورانية وتفيض العيون بدموع الندم والخشية والتوبة ، وتعمر القلوب بوشائج المحبة الدائمة ، ومقامات العشق وأحواله ، وينسكب هذا كله فى النهاية شعرًا يفيض بالصدق ويعمر باليقين والمحبة والإيمان .

والأمل معقود أن تلقى هذه المختارات من شعر الحب الإلهى ما لقيته سابقتها لدى القراء من ذيوع وانتشار ، وأن يستجيب شعراؤنا ودارسونا للدعوة التى حملتها المختارات السابقة : أن يسهموا ويشاركوا فى هذا الميدان ، كل على حسب طاقته واستطاعته واهتماماته، فتعدد مجالات الاختيار، من خلال أذواق عدة ، من شأنه أن يؤدى فى النهاية إلى تكوّن الذوق الصحيح المدرب الذى يجيد الانتقاء والرؤية النافذة ، وينجح فى تقديم قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله التراث من كنوز ، بعد أن ينفض عنها غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها ماء الجدّة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات فى تقريب المسافة بين القارئ المعاصر وتراث أمته الشعرى ــ قديمه وحديثه ــ وفتحت بابًا ولو يسيرًا لتذوق عصرى ، ترفده حساسية جديدة ، ووعى جديد، فإنها تكون قد شارفت الغاية، وأشارت إلى الطريق .

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤/٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ، ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣